المحيدثة! واحدة من أروع وأجمل القرى اللّبنانية الهادئة، الوادعة المعلّقة بأقدام الجبل والمحاطة بها أشجار الحور والصفصاف من كل جانب، قرية تملأ جنباتها الحقول والكروم الحبلى بأطيب الثمار، قرية تختلط فيها زغردة الطّيور بِأُنَّـةِ النّاي المبحوح، وتنتشر فيها الرّياض الغنّاء المخضوضرة، والمياه العذبة الرّقرارقة، قرية كثرت فيها زراعة التوت وصناعة الحرير، وتصاعدت فيها نغمات مختلف العصافير، قرية يشعر فيها كلّ إنسان وكأنّ الطبيعة نشوى تعيش في عرس حالم.[1]

في هذه الطبيعة السّاحرة والقرية الرّائعة فتح "**إيليا أبو ماضي**" عينيه الصّغيرتين على الحياة، ونما وترعرع في أحضانها، وقد خصّصت هذا الفصل للتعرّف على هذا المولود التي غمر باسمه وشعره العالمين العربي والغربي.

أولاً: إيليا أبو ماضي: حياته وثقافته

1- ولادته ونشأته:

ولد "**إيليا ضاهر أبو ماضي طانيوس**"[2] في قرية "**المحيدثة**" في المتن الشمالي من لبنان[3]، "وقد كان هناك اختلاف غير قليل في السّنة التي رأى "**أبو ماضي**" نور الوجود: فجريدة السّائح في عددها الممتاز لعام **1927م** تذكر أنّه ولد عام **1889م** وهي حتمًا لم تأت بهذا التاريخ اعتباطًا، لعضو من أعضاء الرّابطة القلمية التي كانت "**السّائح**" لسانها الرّسمي وندوتها الفكريّة، فلابّد أنّها أخذته من الشاعر نفسه، ولذلك ظلّ تاريخ "**السّائح**" هو التاريخ الذي يعتمد عليه كل من يكتب عن "**أبي ماضي**" ويتعرّض لتاريخه ومولده".[4]

---

[1] يُنظر، خليل برهومي، الأعلام من الأدباء والشعراء، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993 ص15.

[2] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي (أعماله الكاملة)، قدم له وضبطه وشرحه صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ط، 2013، ص05.

[3] كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط3، د.ت، ج2، ص269.

[4] عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص362.

ومع ذلك أود أنْ أذكر هذه الإختلافات لدى بعض الباحثين الذين تناولوا "**إيليا أبو ماضي**" في دراساتهم، فمن الذين ذكروا في كتاباتهم أنّ شاعرنا هذا من مواليد **1889م** نجد:

ـ "**حنّا النّاعوري**" في كتابه "**الجامع في تاريخ الأدب**".[1]

ـ "**سلمى خضراء الجيّوسي**" التي كانت من بين أبرز الباحثين الذّين حدّدوا سنة **1889م** تاريخًا لميلاد "**إيليا أبو ماضي**".[2]

ـ كذلك "**كامل سليمان الجبّوري**" في مؤلّفه "**معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م**".[3]

وهناك أبحاث أخرى اختلفت في هذا التاريخ وأكّدت أنّ "**إيليا أبو ماضي**" كان من مواليد سنة **1890م** فـ "**عبد الباسط**"- مثلاً- (رئيس قسم اللّغة العربية بكليّة إعداد المعلمين بجامعة التحدّي في الجماهيرية اللّيبية) ذكر في إحدى دراساته التي حملت عنوان "**دراسة في لغة الشعر عند إيليا أبو ماضي**" أنّ هذا الشاعر اللّبناني من مواليد **1890م.** [4]

ـ أمّا "**كاظم حطيط**" في كتابه "**أعلام وروّاد في الأدب العربي**" فذُكر أن "**إيليا أبو ماضي**" كان من مواليد **1891م** إلاّ أنّه في حديث آخر عن الشاعر في نفس الكتاب يقول: إنّ "**إيليا**" كان من مواليد **1889م**[5]، وهذا ما يجعلني أستنتج أنّ الإختلاف في السّنة التي فتح فيها "**أبو ماضي**" عينيه ليرى نور الوجود لم يكن بين الباحثين والدّارسين، بل كان هذا

---

(1) يُنظر، حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب الحديث-، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986، ص590.

(2) يُنظر، سلمى خضراء الجيوسي، الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، تر عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت ط1، 2002، ص169.

(3) يُنظر، كامل سلمان الجبوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003، ج1، ص320.

(4) يُنظر، عبد الباسط محمود، دراسة في لغة الشعر عند إيليا أبو ماضي، دار طيبة، القاهرة، د.ط، 2005، ص15.

(5) يُنظر، كاظم حطيط ، أعلام ورواد في الأدب العربي، ج2، ص268، 269.

الاختلاف حتّى لدى الدّارس الواحد- "**كاظم حطيط**"- فمرّةً يذكر سنة وفي مرّة موالية في نفس الدّراسة يذكر سنة مخالفة للأولى، دون الإشارة منه إلى هذا الخلط بين السّنوات.

أمّا في مراجع أخرى فأجد الدّارسين يذكرون هذا الإختلاف ويحاولون ترجيح رأي عن آخر، وفي ذلك خاض "**عيسى النّاعوري**" في كتابه "**أدب المهجر**" مستندًا إلى بعض الآراء والمراجع السّابقة لتدعيم كل رأي، وكان هو نفسه يقتنع برأي ويشكّ في آخر، مستغربًا في الوقت ذاته تضارب الرّوايات إلى هذا الحد في مولد شاعر عظيم "**كأبي ماضي**"، هذا الشاعر الذي "كان إلى الأمس القريب جدًّا مِلْء السّمع والبصر والقلب".[1]

وما يهّم هنا هو أنّ هذا الشاعر قَدْ وُلِدَ فعلاً ليكون عبْقرِيًا تشهد له كل الدّراسات بذلك وبجهده الجبّار وإضافاته المأخوذة بعين الاعتبار في تاريخ الأدب المهجري-بصفة خاصة- والعربي- بصفة عامة-.

لقد كان "**أبو ماضي**" ابنًا لعائلة فقيرة لا تكاد تكسب قوت يومها، لذلك لم تستطع أنْ يُحصّل في قريته أكثر من بضعة دروس ابتدائية بسيطة، لم تَرْوِ ظمأه الشديد إلى العلم والمعرفة، وهذا ما حَدَاه إلى أنْ يسير على قدميه مسافة ميلين كل يوم، وهو في السّابعة من عمره، ليسترق السّمع من نافذة المدرسة التي كان يديرها العلاّمة الشّيخ "**إبراهيم المنذر**"، فيقف أمام نافذتها يُصْغِي إلى شرح الدّروس، وحين لاحظ صاحب المدرسة شدّة رغبة "**أبو ماضي**" في نهل العلم، دعاه إلى دخول المدرسة والانتظام في صفوفها من غير مقابل.[2]

دخل "**أبو ماضي**" مدرسة "**المحيدثة**" القائمة في جوار الكنيسة، وبين صفوفها أخذَ يفكّ لغز الحرف وطلسم الكلمة، من دون أنْ يعرف هو أو والده أو أقرباؤه أو أترابه أنّه سيصير بعد حين شاعرًا كبيرًا تنطلق من حنجرته وقلمه أجمل القصائد الشعرية.[3]

---

[1] يُنظر، عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص362، 363.

[2] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي(أعماله الكاملة)، ص05.

[3] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص16.

وهكذا تعلم "**أبو ماضي**" في قريته أصول الكتابة والقراءة باللّغة العربية، ولمّا ضاقت به سبل العيش وجَدَ أنّ لا مناص له من السّفر فَحَزم أمتعته وقرّر الرّحيل.[1]

2- هجرته إلى الإسكندرية:

شقّ "**إيليا أبو ماضي**" صدر البحر متوجهًا إلى "**الإسكندرية**" بمصر عام **1902م**- حسب أغلب الآراء- شأنه في ذلك شأن جمهرة من اللبنانيين الذّين يممّوا وجههم شطر أرض الكنانة طلبًا للعيش الكريم، وقد فتحت لهم مصر صدرها واستقبلتهم بترحاب شديد، وقد أسس فيها بعضهم مجدًا أدبيًا كبيرًا، وساهموا في بناء النهضة العربية الحديثة. [2]

وقد كان "**لإيليا أبو ماضي**" عَمٌ بمصر يملك محلاً تجاريًا، عمل فيه بائعًا للفائف التبغ[3]، وبأجره اليسير في ذلك كان يغنيه عن الحاجة والسؤال، تمكن من شراء بعض الكتب الأساسية في النحو والصرف والقراءة ويقال إنّ "**أبا ماضي**" كان ينفق أوقات فراغِه في القراءة والكتابة، والتنقل بين الكتاتيب حتى استقامت أموره اللغوية والمعرفية، وأصبح مهيّأ لسلوك سُبل التعبير عن مكنونات الفكر والنفس والوجدان ولقيت محاولاته الشعرية طريقها إلى النور من خلال مجلة "**الزهور**" التّي أسسها بمصر الأديبان اللبنانيان: "**أنطون الجميل**" و"**أمين تقي الدين**" اللّذان ساعداه وشجعاه عل الكتابة والنظم، وتمكن "**أبو ماضي**" من نشر ديوانه الشعري الأول "**تذكار الماضي**" سنة **1911م** وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره.[4]

---

[1] يُنظر، المرجع نفسه، ص16_ 17.

[2] المرجع نفسه، ص17.

[3] كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي، ج2، ص269.

[4] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي (أعماله الكاملة)، ص06.

وفي مراجع أخرى جاء أنّه عمل أيضًا في صغره في المطابع التي تصدر الصحف، وانتقل بعدها للعمل في المجلات وقيل بأنّ ذلك ما أتاح له فرصة طبع ديوانه الأول سنة **1911م**.[1]

وكل هذه الآراء التي وردت عن الأشغال التي اشتغلها "**إيليا**" في مصر جائزة، فقد "... قضى فيها أحدى عشرة سنة بين الإسكندرية والقاهرة، يعمل في التجارة ويهوى الأدب ويحضر ندواته ومجالسه، ويكتب في صحفه ومجلاته، وينظم الشعر، ويشارك الشعراء في تذوقه وفهمه، متأثِرًا في موسيقاه الحلوة بمدرسة شعراء الإسكندرية...".[2]

وعن كل هذا قال "**إيليا أبو ماضي**": "وفي الإسكندرية تعاطيت بين السجائر في النهار في متجر عمي، وفي الليل كنت أدرس النحو والصرف تارةً على نفسي، وتارةً في بعض الكتاتيب...".[3]

وبعد أن تمكن "**أبو ماضي**" من لغته الشعرية راح يكتب في الموضوعات السياسية والوطنية، بعد أنْ كانت محاولاته إجتماعية بحتة، وجنّد قلمه الخصيب في خدمة القضايا العربية، وفي طليعتها المناداة باستقلال مصر من الاحتلال البريطاني، وتحرير الأقطار العربية. غير أنّه شعر أنّ وجوده في مصر لن يحقق له ما يصبوا إليه من آمال، وأنّ السلطان البريطانية لابُدّ أنْ تنال منه إذا هو استمر على نهجه في مقارعتها، وأنّ مصيره لابدّ أن لا يكون كمصير العشرات من المناضلين الذي ضاقت بهم السّجون فقرّر المغادرة.[4]

---

(1) يُنظر، إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة، عمان، ط1، 2003، ص130.

(2) يُنظر، محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ج1، ص368.

(3) حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب الحديث-، ص591.

(4) يُنظر، خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص19، 20.

وقد اختلفت المصادر التاريخية في أمر سفر "**أبو ماضي**" من مصر، فذهب بعضها أنّه انتقل مباشرةً إلى الولايات المتحدة الأمريكية في حين رأت مصادر أخرى أنّه غادر مصر إلى لبنان أولاً، ثم تركه ميمّمًا شطر الولايات المتحدة الأمريكية. ومهما يكن من أمر فقد ترك "**أبو ماضي**" مصر ولبنان وهاجر إلى أمريكا.[1]

3- هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية:

كان "**أبو ماضي**" يحدوه الطمّوح لرؤية العالم الجديد خلف البحار السبعة، وكان له ما أراد وتمنّى "رست السفينة التي تقلّه في مغرب عشية من عشايا سنة **1912م**، في مدينة "**سنسناتي**"، بولاية "**أوهايو**" حيث أقام فيها مدة أربع سنوات،- وفي مراجع أخرى خمس سنوات[2]- عمل خلال هذه السنوات بالتجارة مع أخيه البكر "**مراد**"، وعزم على أنْ يطلّق الشعر لأنّه لم يورّثه إلاّ الفقر ولم يجلب إليه إلاّ الفاقة، وانقطع بالفعل عن الكتابة زمنًا إلى أنْ عاوده الحنين إلى النّظم، وأخذ ينشر منظوماته المتنوعة في شتّى الصّحف والمجلاّت التي كانت معروفةً آنذاك في عالم الإغتراب، فكان يتغنّى في ذلك العالم بحنينه إلى وطنه".[3]

ويقول "**جورج صيدح**" عن هذه السنوات: "إنّ هذه السنوات الأربع التي قضاها "**إيليا أبو ماضي**" بعيدًا عن دنيا الأدب كان لها تأثير على شاعريته، فقد تطوّرت بسرعة عجيبة، حتى غاب عن قصائده المنظومة من خلالها ذلك الشاعر المقّلِد... الذي كان شأنه في مصر شأن غيره من الشعراء: يستلهم شعر العصر العباسي، ويحاول أنْ يُقلّد "**البارودي**" و"**صبري**" و"**شوقي**"، و"**حافظ**" في أساليبهم، ولكنّه حالما نزح عن المحيط المصري تقمّص شعره روحًا جديدة، واستقلّ بطابع شخصي، فنظم الرّوائع، مثل قصيدة "**ابنة الغجر**" و"**فلسفة**

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي(أعماله الكاملة)، ص06.

[2] يُنظر، كامل سلمان الجبوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، ج1، ص325.

[3] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص28.

الحياة" و"**في اللّيل**" و"**الخلود**"، وأصبح الرّكن الأهم في بناء الشعر المهجري الحديث في المهجر الشمالي".

و"**أبو ماضي**" نفسه في ردّه على السؤال التّالي "**لمحمّد قُرّة**" على: "هل ألهتكم التجارة عن الشعر؟ يجيب "**إيليا**" قائلاً: كلاّ بل ازدادت شاعريّتي وتطوّرت تطوّرًا عجيبًا".[1]

لكن الشاعر لم يجد في تلك المدينة ما كان يطمح إليه من رَغَدٍ ويُسر، فانتقل منها إلى مدينة "**نيويورك**" التي كانت محطّة للعرب القادمين من الشرق، ومركزًا لنشاطهم الفكري والأدبي[2]، وكان بذلك انتقاله إلى حياة الصحافة والأدب، فعُهِدَ إليه تحرير "**المجلة العربية**" وفي سنة **1918م** عُهِدَ إليه تحرير مجلة "**مرآة الغرب**" لصاحبها "**نجيب دياب**"، وفي سنة **1929م** أنشأ مجلة "**السمير**" (وقد حوّلها سنة **1936م** إلى جريدة يومية)- وظلّت هذه الجريدة إلى أنْ وافته المنيّة- وكان في سنة **1920م** قد اشترك في تأسيس الرّابطة القلمية- وكان شاعرها الفذّ الذي غزَا صيته العالمين القديم والجديد-.[3]

لقد لخص "**أبو ماضي**" في حديثه مع "**محمد قُرّة**" هذه الفترة الجديدة من حياته بقوله: "انتقلت إلى نيويورك عام **1916م**، إذ تلقّيت دعوةً من بعض الشباب العربي الفلسطيني يعهدون إلَيَّ بتحرير "**المجلة العربية**" التي كانوا يُصِدرونها في نيويورك، قبِلتُ الدّعوة ورأست تحرير المجلّة المذكورة، ولم يطل الوقت حتّى أسهمت بتحرير "**الفتاة**" التي كان يصدرها آنذاك صديقنا "**شكري البَخّاش**" صاحب الزميلة "**زحلة الفتاة**" اليوم. وفي عام **1918م** انصرفت إلى تحرير جريدة "**مرآة الغرب**" وفي عام **1928م** تركت "**المرآة**" وفي نيسان

---

[1] عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص365.

[2] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي(أعماله الكاملة)، ص07.

[3] حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب الحديث-، ص591.

أصدرت مجلة "**السمير**" وكنت أُصدرها مرّ تين في كل شهر، وفي سنة **1936م**، حوّلتها إلى جريدة يومية".[1]

أمّا عن حياته العائلية فلم يرد الكثير عنها في المراجع، يقول "**عيسى النّاعوري**" في ذلك: "... أمّا حياته العائلية فَلِسْنَا نعرف الكثير عنها، وكلّ ما أعرفه أنّ له من الأبناء ثلاثة، أكبرهم "**رِيتْشُرد**"...، وهو من علماء "**الذّرة**" يحمل درجة "**دكتور في العلوم الطبيعية**"...، أمّا الثاني فاسمه "**رُوبِرْت**"، وكان يعمل في جيش الطيران، والثالث كان مريضًا لا يتعاطى عملاً، ولعلهم جميعًا لا يقرؤون شعر أبيهم أو يفهمونه، لأنّهم وُلِدوُا وعاشوا في بيئة أمريكية، ولغتهم هي الإنجليزية".

أمّا زوجته فهي السيّدة "**دوروتي**" ابنة "**نجيب دياب**"، صاحب جريدة "**مرآة الغرب**" التي عمل فيها "**أبو ماضي**"، وقد اقْتَرَن بها حين كان يعمل في جريدة أبيها، وهي تعيش إلى اليوم في أمريكا، وقد عادت سنة **1972م** إلى لبنان لترى لأوّل مرّة في حياتها الضيعة التي خرج منها زوجها الشّاعر العظيم، ثم عادت من جديد إلى أمريكا.[2]

4- إنخراطه في الرّابطة القلمية:

أتُيح للشاعر "**إيليا أبو ماضي**" أن يتصل بأوساط الحالية اللّبنانية، وكافّة الجاليات العربيّة في نيويورك بحكم مهنته الصحفية... وأُتيح للشاعر أيضًا أن يتعرّف في هذه المدينة إلى نخبة من أدباء المهجر أمثال: "**جبران خليل جبران**"، و"**ميخائيل نعيمة**"، و"**أمين الرّيحاني**"، و"**نسيب عريضة**"، و"**ندرة حدّاد**"، و"**عبد المسيح حدّاد**"، وسواهم من رجال الفكر وحَمَلة القلم.

أمّا كيف وُلِدت فكرة إنشاء "**الرابطة القلمية**" فقد كانت بدءًا من الخلوات الحميمية بين"**أبو ماضي**" وبين "**جبران**" و"**الرّيحاني**" و"**نسيب عريضة**"، و"**عبد المسيح حدّاد**"... بدأت

---

[1] يُنظر، عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص365، 366.

[2] المرجع نفسه، ص366.

تنمو فكرة إنشاء جمعية أدبية تَظُم نخبة الكتّاب اللّبنانيين والسّوريين التّواقين إلى التحرّر والتجديد، سواءً في حقل العمل الوطني، أو في حقل اللّغة والأدب، أو في حقل المجتمع العربي الغارق في تقاليده المتحجّرة في سبيل مواكبة العصر.

وفي سهرة أحياها "**عبد المسيح حدّاد**" في **عشرين نيسان 1920م** ودَعَا إليها بعض الأدباء، دار الحديث بينهم عن الأدب ودوره في بثّ روح جديدة في الشرق العربي وتحريره من الجمود والتقليد، استقر الرأي على تأسيس رابطة أدبية تحمل اسم "**الرّابطة القلمية**"، وبعد ثمانية أيام عُقِد إجتماع ثانٍ في منزل "**جبران**"- غاب عنه "**إيليا أبو ماضي**"- تألفت هذه الجمعية.[1]

وأجمع الأعضاء المؤسسون لهذه الرّابطة على إقرار جملة من الشروط المتمثلة في النّقاط التالية:[2]

أ- أنْ تدعى الجمعية بـ "**الرّابطة القلمية**".

ب- أنْ يُموّن لها ثلاثة موظفين وهم: الرئيس ويدعى "**العميد**"، وكاتم السّر ويدعى "**المستشار**"، وأمين الصندوق ويدعى "**الخازن**".

ج- أنْ يكون أعضاؤها ثلاثة طبقات: عاملون ويدعون "**عمالاً**"، فمناصرين ويدعون "**أنصارًا**"، فمراسلين.

د- أنْ تهتم الرّابطة بنشر مؤلفات عمّالها، ومؤلفات سواهم من كتّاب العربيّة المستحقيّن وبترجمة المؤلفات المهمّة من الآداب الأجنبية.

هـ- أنْ تعطي الرّابطة جوائز مالية في الشعر والنثر والترجمة تشجيعًا للأدباء.

وتم في الإجتماع إنتخاب "**جبران خليل جبران**" عميدًا للرّابطة بالإجماع، و"**ميخائيل نعيمة**" مستشارًا، و"**ويليان كاستفيلس**" أمينًا للصندوق.

---

[1] يُنظر، خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص30، 31، 32.

[2] محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر، الأردن، ط2، 2006، ص57.

ولمّا صدر العدد الأول من "**مجموعة الرّابطة القلمية**" سنة **1921م** كان "**لأبي ماضي**" فيه خمس قصائد، وفي جوّ هذه الرّابطة لمع "**أبو ماضي**" كشاعر ممتاز، وذاع صيته في العالم العربي كلّه، كما انتشر صيت هذه الرّابطة التي كان لها فضل نشر مذهب المهاجرين في الأدب والإعلام، والتي شكلّت مدرسةً أدبية لها نشأتها وخطرها.[1]

وفي حياة "**الرّابطة القلمية**" هذه نضجت شاعريّة "**أبو ماضي**" وبلغت قمّة نضجها فكان شعره عنوانًا للشعر المهجري الجديد في روحه وأفكاره وخيالاته وصياغته، لقد كان شاعر الرّابطة الأكبر.[2]

وخلاصة القول عن مكانة " **أبو ماضي**" الأدبية في الرّابطة القلمية أنّ قرّاءه كانوا يلاحظون دائمًا أنّه بين إخوانه في هذه الرّابطة أنّه أكثرهم نظمًا وأطولهم في شعره نفسًا وأكثرهم استعمالاً للقافية الواحدة وأفرهم نظمًا للمطوّلات الشعرية فله منها ثلاث مشهورات وهي: "**الطلاسم 284 بيتًا**" و"**الأسطورة الأزليّة**" كانت في الأصل **142** ولكنّها في "**الخمائل 137 بيتًا**" و"**الشاعر والسلطان الجائر 79 بيتًا**" وهو في كل هذا موفّق ومجيد إلى أبعد الحدود.[3]

5- عودته إلى أرض الوطن:

في عام **1948م**، دُعي الشاعر " **أبو ماضي**" لحضور مؤتمر الأنيسكو العالمي الثالث في بيروت فَلَبّى الدّعوة، يدفعه إلى ذلك حنين جارف لأرض الوطن، وما إنْ وطأت قدماه أرض مطار بيروت، حتّى أحاطت به جماهير غفيرة من مريديه ومتذوقي شعره، ورحّبت به أجمل ترحيب، فكان أنْ أنشدهم رائعته الشعرية "**وطن النجوم**" التي بثّ فيها

---

(1) خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص32.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص367.

(3) المرجع نفسه، ص373.

مشاعره وأشواقه الحارّة إلى وطنه الحبيب- وسأتطرق إلى هذه القصيدة في الفصل التطبيقي-، وفي تلك الرّحلة إلى بلاد الشام، قُلِّدَ "**أبو ماضي**" وسامي "**الإستحقاق**" و"**الأرز**" في لبنان.[1]

كما لقي "**أبو ماضي**" حفاوةً بالغةً في بيروت، فقد لقي مثلها كذلك في دمشق وكان مَوْضِعَ تكريمٍ اعترافًا بشاعريته ونبوغه الأدبي، فأُقيمت على شرفه حفلة برعاية الرّئيس "**شكري القوتلي**" عام **1939م** وعُلّق على صدره وسام "**الاستحقاق الممتاز**".[2]

ثم ما لبث "**أبو ماضي**" أنْ عاد إلى نيويورك، ليجد أصحابه "**جبران**"، و"**نسيب**"، و"**نعيمة**" و"**الرّيحاني**"، و"**حدّاد**" قد غيبهم الموت أو المرض أو السفر وليصاب بجفوة صاحبه **عبد المسيح حداد** الذي ابتعد عنه بسبب أكاذيب ووشايات نُقِلتْ إليه عنه، الأمر الذي تسبب في اعتلال صحته- علمًا أنّه كان مصابًا بمرض القلب-وإصابته بقنوط شديد،لم يتمكّن أصدقاؤه الباقون من إزاحته أو التخفيف من وطأته بالرّغم من جهدهم الذي بذلوه في إقامة حفلة تكريمية ضخمة بمناسبة مرور خمسة وعشرين عامًا على صدور مجلّة "**السّمير**".[3]

6- وفاته:

توفي "**أبو ماضي**" في نيويورك في الرّابع والعشرين من نوفمبر عام **1957م**[4]، وعن سبب وفاته يقول "**عيسى النّاعوري**": "جاء في **(جريدة البيان)** النيويوركيّة لصاحبها "**راجي الظّاهر**"، في العدد **2331** لسنة **57** بتاريخ **30 نوفمبر 1957م** ما يلي:

---

(1) إيليا أبو ماضي،ديوان إيليا أبو ماضي(أعماله الكاملة)، ص08.

(2) خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص40.

(3) إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي(أعماله الكاملة)، ص09.

(4) محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج1، ص347.

لقد قضى المرحوم "**إيليا أبو ماضي**" السنوات الأخيرة يشكو علّةً في القلب اضطرته إلى دخول المستشفى في طلب العلاج مرّتين، وكانت المرّة الأخيرة في شهر حزيران الماضي، حيث اشتدّت عليه العلّة وكانت تؤدّي بحياته الغالية، ولكنّه تغلّب عليها وعاد إلى داره في أواخر شهر تمّوز الفائت، وأخذ يتدرّج في طريق الشفاء واستعادة نشاطه، وفي الساعة الرّابعة من صباح يوم السبت الماضي استفاق الفقيد يشكو ضيقًا في أنفاسه فأيقظ قرينته الفاضلة السيّدة "**دوروتي**" واستنجدها لتُسعفه بأقراص من المنعشات كان يستعين بها في مثل هذا الحال، فخفّت إليه وأنجدته بها، ولكنّه بعد تناولها لم يشعر بتحسن فطلب إلى السيّدة قرينته أنْ تستدعي الطبيب، ففعلت ذلك في الحال، فلّما جاء وجدته قد فارق الحياة...

وهكذا كانت وفاته ما بين الساعة الرّابعة والخامسة صباح يوم السبت من التاريخ المذكور أعلاه...".[1]

هكذا فارق شاعرنا الفذ دنياه بعد حياة حافلةً بالنشاط والعمل في مجالات الشعر والأدب والصحافة والسياسة والعمل الوطني والقومي مخلفًا مجموعة رائعةً من الدّواوين التي ضاع صيتها في كافّة المجتمع العربي وأوّد أنْ نتعرف على دواوينه هاته لكن قبل ذلك أريد أنْ أتطرق إلى شخصية هذا الشاعر وثقافته.

7- شخصيته:

عن شخصية "**أبي ماضي**"، "**كاظم حطيط**" يتحدث: "اتّصف "**إيليا أبو ماضي**" بعدّة مزايا فهو ذكي موهوب، عصاميٌ طموح، وأدبيٌ غرير، يحّب لبنان حتى العشق والولع، ويخلص لعروبته، وَيَتَفَانَى في حبّه للعربيّة وُيناضل من أجل قضايا العرب على اختلاف أقطارهم وأمصارهم، وهو يقف من فلسطين موقفه القومي العربي والوجداني المؤثّر، ويتعمّق ويتميّز في نزعته الإنسانية، ويندفع في هذا الموقف لمناصرة "**قضية الزّنج**" في الولايات

[1] عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص371.

المتحدة الأمريكية، وينطلق داعيًا للتفاؤل ويؤمن بحق الإنسان في السعادة، ويخلص للشعر ميدانه، ومجاله الأحب، ويعمل في الصحافة لخدمة لغته العربية، ولتوثيق الصِّلات بين المهاجرين العرب، ثم بين هؤلاء وبين أخوتهم العرب المقيمين".[1]

8- ثقافته:

يمثل "**أبو ماضي**" نموذجًا أدبيًا للشعر المهجري وقد جمع في ثقافته بين الثقافة العربية والثقافة الغربية فقد قرأ التراث الشعري العربي القديم واحتذاه في بعض نماذجه، كما اطلّع على التيارات الثقافية الغربية ثم كان له منهجه الشعري وفلسفته الخاصة. (أمّا فلسفته الشعريّة فتقوم على التفاؤل ومحبّة النّاس، وكأنّما لقي في مهجره الجديد ما عوّضه عن القهر النفسي).[2]

وعن ثقافته- أيضًا- تحدّث "**كاظم حطيط**"- مجددًا- إذ يقول: "لم تطل أيّام "**أبي ماضي**" في مدرسة قريته اللّبنانية "**المحيدثة**" وانطلق إلى التحصيل العلمي الذاتي، فيُجيد لغته العربية ثم أكثر من لغة أخرى، واهتم في مطلع شبابه بالتراث العربي، وتأثّر بكبار الشعراء العبّاسيين، ثم بشعراء عرب معاصرين، وأفاد في انتسابه إلى الرّابطة القلمية من ثقافة مؤسسيها وكلهم بارزون ومتقدّمون في مجالاتهم، وزاده عمله في الصحافة اتصالاً بالنّاس وانفتاحًا على واقع عصره وعالمه. وأغنته معاناته وتأمّلاته في الفكر والرّؤى، والصّور، وتلاحمت كل المنطلقات فأثرت في عطائه الأدبي والثقافي وأثرته".[3]

ثانيًا: التجربة الشعرية عند إيليا أبو ماضي

1- آثاره الشعرية:

---

[1] كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي، ج2، ص270.

[2] مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، دار الوفاء، د.ط، د.ت، ص64.

[3] كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي، ج2، ص270.

ترك "**أبو ماضي**" خلال سبعة وستين عامًا- حسب أغلب الآراء- من عمره خمسة داوين شعرية طُبِع أوّلها في الفترة الباكرة من حياته الشعرية في مصر بالإسكندرية، وهو ديوان "**تذكار الماضي**"، وطُبعت له ثلاثة داوين هي: "**إيليا أبو ماضي (الجزء الثاني)**"، "**الجداول**" "**الخمائل**" بنيويورك، أمّا الدّيوان الأخير"**تبر وتراب**" فقد طبع بعد وفاته مع قصائد أخرى لم يكن سجّلها في دواوينه السابقة.[1]

1-1- ديوان "تذكار الماضي":

يعتبر هذا الدّيوان بداية المسيرة الشعرية "**لإيليا أبي ماضي**" وقد أُصدر بمصر سنة **1911م**[2] ويكشف هذا الديوان عن معرفة تراثية بالشعر، كما تعكس قصائده سليقة قوية، وذاكرة حادة، ومهارة في رصف الكلام والقوافي وضبط الأوزان، ولا شيء أكثر من ذلك، لكنّها لا تنم عن الكثير من الحساسية الحديثةأو الإبداع الحقيقي[3]، فقد ظهر التقليد واضحًا في هذا الديوان لشعراء عرب عباسيين مثل: "**أبو تمام**" و"**البحتري**"، وآخرين معاصرين مثل: "**البارودي**"، و"**شوقي**"، و"**حافظ**".[4] فبين هذا الكتاب المبكر للشاعر الشاب والقصائد المشهورة "**لأبي ماضي**" بعد أنْ نضج شعره ثمة فجوة كبيرة ونمو هائل في الحساسية إلى جانب تجديد ثوري في الأدوات الشعرية.[5]

لقد أحبّ "**أبو ماضي**" مصر، وتغنّى بأمجادها، وكانت تؤلمه حالها وهي تئن تحت وطأة الاحتلال فجاهد بقلبه ولسانه وقلمه في سبيل انتشالها من كبوتها، وقد تجلّت محبته لمصر في ديباجة الإهداء التي صدّر بها فاتحةً ديوانه هذا- تذكار الماضي- يقول في الإهداء: "أيتها الأم الودودة، هذا ديواني الذّي نظمته تحت سمائك وبين مغانيك، أرفعه إليك

---

(1) عبد الباسط محمود، دراسة في لغة الشعر عند إيليا أبو ماضي، ص15.

(2) محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج1، ص368.

(3) سلمى خضراء الجيوسي، الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص170.

(4) كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي، ج2، ص271.

(5) سلمى خضراء الجيوسي، الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص170.

لا طلبًا للمثوبة، ولا ابتغاءً للشكر، ولكن إظهارًا لما تكنّه جوانحي من العطف عليك والتعلق بك".[1]

1-2- ديوان "إيليا أبو ماضي (الجزء الثاني)":

صدّر هذا الديوان عام **1918**م بنيويورك وقد كتب مقدمته "**جبران خليل جبران**"، وأثنى على صاحبه أبلغ ثناء[2]، ويشمل هذا الديوان شعر "**إيليا**" التأملي والقصصي والوطني[3]، وقبل إنّ "**أبا ماضي**" لم ينشر قصائده العنيفة ضدّ السلطات المصرية المستسلمة لإرادة الإنجليز في ديوانه الأول "**تذكار الماضي**" الذّي نشره في الإسكندرية، بل احتفظ بهذه القصائد في هذا الديوان.[4]

وقد عكس هذا الديوان نتيجة الاتصالات الجديدة "**لأبي ماضي**" "بعد اتصاله بالثورة على الجمود والتقليد" وقد مر "**أبو ماضي**" بتحول كبير في حساسيته الشعرية، وقد حدث ذلك- على حسب رأي "**ميخائيل نعيمة**"- بعد أنْ بدأ هذا الأخير بالنشر في جريدتي "**الفنون**" و"**السّائح**" ولاسيما بعد أنْ نشر "**نعيمة**" قصيدته "**النهر المتجمد**" و"**أخي**" وتقول "**سلمى الجيوسي**": "... نحن نلمس بعض دلالات هذه الحساسية الجديدة في قصيدتيه الشهيرتين "**فلسفة الحياة**" و"**لم أجد أحدا**" لكن أغلب قصائد هذه المجموعة تقليدي "**1916م**" عن الحرب وهي قصيدة تفتقر إلى الوحدة وفيها تفلسفٌ تقليدي وعواطف جاهزة".[5]

وقد أهدى "**أبو ماضي**" في هذا الديوان إلى تاجر سوري يشبهه في قصيدة قصيرة له بـ "**النجوم** و**المطر**" (وهي صورة عربية قديمة للرجل الكريم) لأنّ هذا التاجر قد تبرع بنشر الديوان، وعن الإهداء تقول "**سلمى خضراء الجيوسي**": "وهذا الإهداء الذي لابدّ من أنّه قد

---

(1) خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص21.

(2) عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص368.

(3) محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج1، ص368.

(4) يُنظر، خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص21.

(5) يُنظر، سلمى خضراء الجيوسي، الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ص170، 171.

نُظم قبيل الطبع مباشرةً يشير إلى محدودية تحول "**أبي ماضي**" إلى الشعر الجديد، وهو ما أخفق "**نعيمة**" في ملاحظته"، وتقول أيضًا عن أهمية هذا الديوان: "لكنّ أهمية هذا الديوان هي أنّه يشير إلى أثر المفهوم الشعري الجديد الذّي كان الشعر قد أصبح في حاجة ملحة إليه، في شاعرٍ ذي ثقافة تقليدية خالصة، وذي موهبة متميزة جدّا في الوقت نفسه".[1]

1-3- ديوان "الجداول":

نشر "**إيليا أبو ماضي**" في ديوانه "**الجداول**" عام **1927م**، الذي طبع في مطبعة "**مرآة الغرب**" في نيويورك،[2] "... وقد كان لهذا الديوان الشعري صدى كبير في الأوساط الأدبية، وكان "**أبو ماضي**" في هذه المرحلة من حياته قد اختمرت تجربته الشعرية، وقد تناولت معظم البلدان العربية ديوانه الجديد بالنقد والتحليل والدراسة، فأثنى عليه قوم وقرظوه، وذمه آخرون وانتقدوه، وقد قدّم للديوان "**ميخائيل نعيمة**" مثنيًا على موهبة الشاعر ومنوهًا بنزعته الأدبية والفلسفية...".[3]

يقول "**نعيمة**": "فبين هذه الجداول ما تنساب معه روحي مترقرقةً ، مترنمةً، مطمئنةً، جذلةً بنور في عينيها، وجمال في جانبيها، مرحةً بحرية لا أرصاد عليها ولا قيود، ومدًى لا آفاق لها ولا حدود...".[4]

ففي هذا الديوان ينحو "**أبو ماضي**" إلى التجديد، وانطلق فيه انطلاقًا متميزًا حيث تعمق بآرائه ومواقفه وهجر ما استطاع من مواضيع تقليدية كالمدح والهجاء، وانفتح على الإنسان والطبيعة، وبدأ مسيرة الشك والتفلسف.[5]

---

[1] المرجع نفسه، ص171.

[2] محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج1، ص368.

[3] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص33.

[4] إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، ص131.

[5] كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي، ج2، ص271.

يقول "**عيسى النّاعوري**" عن هذا الديوان: "... وأمّا الجداول فغنى بالقصائد الجياد التي تُعد من عيون الشعر، والتي تمتاز بغناها الوافر في الشعور الإنساني، وفي الإحساس بالطبيعة والحياة، وفي لطف أسلوبها، وبُعدِ خيالها، وجمال صورها، ممّا يندر أنْ يجتمع كلّه لشاعر واحد، فهناك على الأخص قصائده التالية، "**الفاتحة السجينة، تعالى، الطين، ...، المساء، الكمنجة المحطمة، اليتيم، أنا، العليقة، هي، الطّلاسم**" هذه القصائد قَلَّ أنْ اجتمع في ديوان شعر واحد عدد مثلها...".[1]

1-4- ديوان "الخمائل":

في عام **1940م** نشر "**أبو ماضي**" ديوانه الرابع هذا باسم "**الخمائل**" وقد صدرت الطبعة الأولى منه في نيويورك والثانية عن مكتبة "**صادر**" في بيروت سنة **1948م**[2]، غير أنّ "**محمد عبد المنعم خفاجي**" في كتابه "**دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه**" يذكر أنّ هذا الديوان صدر عام **1946م.**[3]

ومهما يكن من أمر في عام إصداره، فقد جاء هذا الديوان الجديد حافلاً بالقصائد الرائعة التّي تدل على شاعرية "**أبو ماضي**" المتفوقة، وتجديده شكلاً ومضمونًا وقد بوّأه ليكون كبير شعراء المهجر على الإطلاق.[4]

وعن خصائص هذا الديوان يقول "**عيسى النّاعوري**": "... نجد في الخمائل الخصائص عينها التي وجدناها من قبل في شعر "**الجداول**" إلاّ شيئًا جديدًا واحدًا- نعدّه نحن نكسةً إلى الوراء- وهو زيادة عدد قصائد المناسبات الشخصية في "**الخمائل**" فقد اجتمع منها نحو اثني عشرة قصيدة أو تزيد، ولم يكن في "**الجداول**" منها سوى اثنتين، هذه الظاهرة نستغربها في

---

[1] عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص372.

[2] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص38.

[3] يُنظر، محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج1، ص347.

[4] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص39.

ديوان لأكبر شاعر في "**الرّابطة القلمية**" التي طالما حاربت شعر المناسبات في إبّان قوتها، أقول هذا وأنا لا أنكر أنّ في قصائد المناسبات في هذا الديوان عددًا من أروع القصائد الإنسانية أو الاجتماعية، أو الوطنية، وأشير هَهُنَا بنوع خاص إلى قصيدته: "**بين مدٍّ وجزر**" و"**كن بلسمًا**"، فَحَظُ المناسبة الشخصية فيهما من الضآلة بحيث لا يكاد يظهر، ... ويحتوي ديوان "**الخمائل**" على سبع وخمسين قصيدة، منها المطولتان المشهورتان: "**الأسطورة الأزلية**"، "**الشاعر والسلطان الحائر**"، ومن أجود قصائده التي تجري مع قصائد "**الجداول**"- إضافةً إلى هاتين المطولتين- نذكر "**الدمعة الخرساء، الفيلسوف المجنح، أمنية آلهة، وقائلة، الفراشة المحتضرة، ابتسم، كتابي، كن بلسمًا، تأملات، شاعر الشهور، الشاعر في السماء كُلوا واشربوا، أبسمي، بين مدّ وجزر**".[1]

ويقول أيضًا عن نفس الديوان: "وهنا في "**الخمائل**"، كما في "**الجداول**"، تتلخص ميزات "**أبي ماضي**" الشعرية في شعوره الإنساني، وعمق إحساسه بالطبيعة، وتفاؤله، وحبّه للحياة، وشعره الاجتماعي، وحنينه إلى وطنه، وفي الحيوية الشعرية".[2]

1-5- ديوان "تبر وتراب":

نشرت دار العلم للملايين بعد وفاة الشاعر "**إيليا أبو ماضي**" ديوانه الخامس بعنوان "**تبر وتراب**" وقد طبع خمس مرات متوالية ما بين عامي **1960م و1970م**، كما جمعت دار اليقظة العربية بدمشق دواوينه في ديوان شعري واحد ضم جميع منظوماته مرتبًا حسب القوافي وقدمتها بدراسة قيمة كتبها "**زهير ميرزا**".[3]

2- أطواره الشعرية:

---

[1] عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص373.

[2] يُنظر، عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص373، 374.

[3] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص39.

لقد توزعت قصائد "**إيليا أبو ماضي**" على العديد من الموضوعات الإنسانية والإجتماعية والسياسية والقومية، إلى جانب تناوله لموضوعات المرأة والطبيعة والحنين إلى الوطن، وغير ذلك ممّا شغل الشاعر بفكره ووجدانه[1]، غير أنّ شعر "**أبو ماضي**" هذا مرّ بمرحلتين هما:

2-1- المرحلة الأولى:

اتجه "**أبو ماضي**" بشعره خلال هذه المرحلة اتجاهًا قديمًا، وكان هذا الاتجاه غير واضح الشخصية وكانت نزعته الإنسانية فيه ضعيفة الملامح والأثر، يقول "**حنّا الفاخوري**": "وهكذا كان شعره قبل انضمامه إلى الرّابطة القلمية شعرًا تقليديًا يعتمد فيه على الأوزان الشعرية الخليلية في غير تصرف ولا تفنن، ويعني فيه عنايةً كبيرةً بالألفاظ والتعبيرات، وكثيرًا ما يُؤْثِرُ البحور الطويلة والمطالع الفخمة، ويَعمد إلى معارضة "**المتنبي**" و"**أبي العلاء المعري**" و"**أبي نواس**" و"**البارودي**" في بعض قصائدهم".[2]

وقد تجلى هذا الاتجاه القديم في ديوانه الأول- "**تذكار الماضي**"-، "إذ كان لا يختلف في شيء عن الدواوين الشعرية الأخرى التي كانت تظهر في الشرق آنذاك".[3]

2-2- المرحلة الثانية:

نقلت أهم مميزات هذه المرحلة عن قول "**حنّا الفاخوري**": "... انتقل "**إيليا**" في هذه المرحلة من الشكل الشعري التقليدي إلى التعبير عن مجالي الروح، ويرسل تعبيره في غير عناية كبيرة، مؤثرًا أنْ يتحول بالقصيدة من "**هيكل صناعي مجرد إلى قوة عضوية نامية**" وأصبحت القصيدة لديه كُلاً كاملاً ذا طول معين ووحدة واحدة، وحياة متدرجة نامية، صحيح أنّ هذه الوحدة كثيرًا ما تبدوا رومانطيقية في مادتها وفلسفتها لكنّها على أي حال خطوة

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي(أعماله الكاملة)، ص09.

[2] حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب الحديث-، ص592.

[3] عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص372.

جديدة في الشعر العربي، جديدة لا لأنّها معدومة النظير قبل "**أبي ماضي**"، ولكن لأنّ الشاعر اعترف بها قاعدة للشعر، فأصبحت أجزاء قصيدته تابعةً لجذعها الكبير، الذّي يتجه اتجاهًا طبيعيًا في نموه، ولم تعد القصيدة أجزاء مؤلفة على نحو من الترتيب والنظام... ولعلّ أكبر ميزة "**لأبي ماضي**" بعد انصرافه عن دور التقليد إنّما تتمثل في هذا الاتجاه الذي اختاره للشعر، ولذلك لم يُقيد "**أبو ماضي**" نفسه بالشكل وتهاون بعض الشيء في ما كان يحرص عليه من جزالةٍ، وترك قوة الخلق هي صاحبة السيطرة على منحى القصيدة وهيكلها الخارجي، ولم يكن ثائرًا على طبيعة القصيدة العربية في شعره، كما يَفْعَلُ المجدّدون اليوم، بل ذهب مع مقتضيات القصيدة نفسها، وهذت أسلم النتائج فقد تتطلب القصيدة منه تنويعًا في الوزن، أو ترديدًا أو تغييرًا في القافية، للقصيدة ذاتها ، إنْ كان لا يتعارض مع نموها وتدرجها، أو يساعد عليهما... وقد استطاع "**أبو ماضي**" أنّ يثبت لنا أنّ الثورة على الشكل وحده ليست ثورةً حقيقة، وإنّ العيب ليس في طبيعة القصيدة العربية، بل هو في نمو الانفعال ودرجته وقدراته على لمِّ التجارب وجمعها جمعًا جديدًا.[1]

وقد أخذت هذه المرحلة رواجها بدءً من ديوانه الثالث "**الجداول**" ومن خلال هذا الديوان انطلق "**إيليا**" انطلاقًا متميزًا... حيث هجر ما استطاع من مواضيع تقليدية كالمدح والهجاء، وانفتح على الإنسان والطبيعة، وبدأ مسيرة الشك والتفلسف، وبديوانه الرابع "**الخمائل**" وصل إلى التأكيد على حبّ الحياة أيًّا كان غموض أسرارها، وتجهم أو تبدل أحوالها وظروفها وتعدد نوازلها وهكذا اتسع شعره في هذه المرحلة سهلاً متيسرًا، وصوره متألقة، وصار شعرًا متسع النطاق يجوب فيه عالم الوطن والإنسان، والطبيعة والحياة ليكون شعره دائمًا مرآة لنفسه أو سجلاً لحياته، أو عطاءً لتطلعاته وتأملاته.[2]

3- ميزات شعره:

---

[1] يُنظر، حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب الحديث-، ص592، 593.

[2] يُنظر، كاظم حطيط، أعلام ورواد في الأدب العربي، ج2، ص271.

أوّل ما يهمّني الإشارة إليه في هذه الإلمامة هو أنّ "**أبا ماضي**" يسير في شعره ضمن حدود وأهداف تنبع من المجتمع، وتستمد قوّتها وعمقها وروعتها من إخلاص صاحبها في خدمته، ومن حياة اجتماعية مثالية يدعو إليه جاهدًا، ثم من اتصال شديد بالطبيعة بحيث يتّخذ أمثلته وإلهامه من مائها وسمائها، من حيوانها وطيرها من نباتها وجمادها، أو بكلمة أخرى ضمن روحها المعبّر.[1]

وقد جمع "**حنّا الفاخوري**" ميزات شعر هذا الشاعر المهجري الأكبر ولخصها في ثماني نقاط كالآتي:

أ- «تظهر في شعر "**أبي ماضي**" قوّة الحياة متدفّقة العاطفة، فيشعر الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم وعلى تباعد أوطانهم ومشاربهم أنّهم يرون فيه صورة عن نفسهم، وعن نوازعهم وآمالهم وتفكيرهم.

ب-وأوّل ما يستلفت النّظر هو أنّ "**أبا ماضي**" يسير في شعره نحو أهداف تنبع من صميم المجتمع وتستمد قوّتها وعمقها من صدق صاحبها وإخلاصه، ومن اتصال وشغف شديدين بالطبيعة بحيث يأخذ مواضيعه وأمثلته وإلهامه من نباتها وجمادها، من أشواكها وورودها، من مائها وسمائها، من حيوانها وطيرها.

ج- ويصطبغ شعر "**أبو ماضي**" بالصّبغة الفلسفية، فهو يحّب الحياة ويحّب الأحياء فيها ويصوّرها نقيّة حلوة، ويستهدف سعادة المجتمع، ويدعوه إلى تنقية الحياة من الأشواك و الأدران.

د- أمّا أسلوبه الشعري فهو صافٍ رقراق كنفسه نقرؤه بثغور مشرقة وقلوب يغمرها الحبّ والأمل هو أسلوب البساطة والوضوح الذي يحمل أبعد معاني الحياة في أعماقه.

---

[1] عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص374.

والذي يزوّد شعر "**أبي ماضي**" بعناصر الحيويّة والتأثير هو أنّ شعره ينبع من قلبه ولعلّ أبرز ما يقرّب هذا الشعر إلى النّفوس نواحٍ ثلاثة: النزعة الإنسانية، والدعوّة إلى محبّة الحياة واستلهام الطبيعة.

هـ- وتعجبك عند "**أبي ماضي**" هذه الثورة التي تمزّق الأقنعة وتكشف للإنسان ذاته في عِريّها الجميل وفي براءتها وأصالتها،و في حقيقتها التي لا تعرف التشويه والخداع، إنّها عمليّة غوصْ في الجوهر المدفون تحت سائر الوهم والضياع، إنّها الدّعوة الصّادقة إلى الإعراض عن التوافه والتخلّي عن بشاعة الغرور والادّعاء للوقوف بنصاعة أمام مجهر الحقيقة، أمام وجه الشمس التي تُحرق بأشعتها كلّ البراقع ولا يكبر في عينها إلاّ الذين طهرت نفوسهم وَسَمَتْ عن أدران الكذب والبغض والاستبداد.

و- و"**أبو ماضي**" في محاولته الإنسانية، قد لا يكون من الذين قبضوا على الرّؤى البعيدة الكامنة في أعماق الإنسان، ولكنّه استطاع بالجَدَل والاستفهام والخبر أنْ يجسّد الفكرة التي رمى إليها، وأنْ يكون مؤثّرًا ومقنعًا في آنٍ واحد، فالأمثلة التي عرضها والتأكيد على ضعف الإنسان وحقارته تشير إلى براعة "**أبي ماضي**" في استفادة المعنى وتطويقه من كلّ جوانبه بحيث يُمسي الغرض واضحًا والغاية مقيّدة.

ز- يغلب على أسلوب "**أبي ماضي**" طابع الجمود، فهو على متانة اللّفظة وأصالتها، لا يقبض على الكلمة ذات المضمون النغمي الذي يذيب النفس ويحملها في نشوة الذهول إلى عوالم السّمفونيات الشعريّة الخالدة، والكلمة عند "**أبي ماضي**" مقيّدة بالمعنى شأن الكلمة العلمية، إنّه يكتب بعقله لا بشروده وانخطافه يكتب بوعيه لا باغترابه خلف جدران الصّمت والتجربة النفسيّة المزلزلة.

شعر "**أبي ماضي**" يهزّ النفوس ويطربها، ولكنّه لا يترك فيها الجرح الذي تتبنيه الأعمال الشعريّة العظيمة، ولا النشوة التي يعيشها القارئ في إبحاره خلف الصّورة وغرقه في بحور الضوء والظّل واللّون.

إنّه يكثر من الاستفهام والجواب والنفي والنداء ملبّيًا حاجة مباشرة في النفس تزول حالمًا ينتهي وقعها.

ح- وكثيرًا ما يعتمد "**إيليا أبو ماضي**" على أسلوب القصص في شعره، أو القصص الخرافي الأسطوري، يستخرج منه دروسًا إنسانية ذات قيمة، وقصصه رائع السّرد، يعتمد فيه على عنصري المفاجأة والتشويق، و"**أبو ماضي**" يمتلك طاقة درامية فريدة... ومهما يكن من أمر يظلّ "**أبو ماضي**" من الرّواد الذين فتحوا صدر الشعر لغير الغنائيّة الذاتية فزرعوا فيه مواسم جديدة لموضوعات شعريّة جديدة تتناول الإنسان في شتّى صوره، وتتناوله فكرة وجوهرًا، نفسًا وعقلاً، تُطِلُ عليه بغير المنظار الذي أَلِفْنَاه وتعالجه بغير الرّؤية التي قَزَّمته.

"**فأبو ماضي**" الشّاعر الإنساني واحد من القلائل الذين كان لهم شرف المحاولة في تطويع الشعر العربي للأغراض الإنسانية الكبيرة». [1]

4- مختارات من شعره:

كان "**لإيليا أبو ماضي**" منهجه الشعري وفلسفته الخاصة، فقد كتب الشعر في موضوعات شتى فكتب موضوعات فلسفية، وأخرى إجتماعية وسياسية، كما كتب في النزعة التأملية، وكان للمرأة أيضًا مكانًا رحبًا بين أشعاره.

عبّر "**أبو ماضي**" عن فلسفته في كثيرٍ من شعره تعبيرًا مباشرًا وبسيطًا[2]، فيقول في قصيدة "**المساء**"- على سبيل المثال-:

السّحب تركض في الفضاء الرّحب ركض الخائفين

والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين

والبحر ساج صامت فيه خشوع الزّاهدين

لكنّما عيناك باهتتان في الأفق البعيد

---

[1] يُنظر، حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب الحديث-، ص596، 597.

[2] مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، ص64.

سلمى... بماذا تفكرين؟

سلمى... بماذا تحلمين؟

* * * *

أرأيت أحلام الطفولة تختفي خلف التُّخوم؟

أم أبصرت عيناك أشباح الكهولة في الغيوم؟

أنا لا أرى لا تلمحين من المشاهد إنّما

أضلالـها في نـاظريك

تنّـم، يـا سلمى، عليك[1]

أمّا النزعة التأملية عند "**أبو ماضي**" فقد اتسمت بالحيرة والشك– في أغلب الأحيان– فقد جمع خلاصة حيرته في **(اللاّ أدريات)**[2]، فيقول في قصيدته الشهيرة **(الطلاسم)**:

جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيت

ولقد أبصرت قدّامي طريقًا، فمشيت

وسأبقى ماشيًا، إنْ شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي

لست أدري!

* * * *

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود

هل أنا حرّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيود

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود

أتمنّى أنني أدري ولكن

ليست أدري![1]

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1977، ص56.

[2] مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، ص65.

لَمْ يَنْسَ "**أبو ماضي**" في شعره أيضًا مصر التي استقبلته بصدرٍ رحب وكانت له الوطن الثاني بعد وطنه الأم، ولَمْ يَنْسَ يومًا أنّها كانت ملعب صباه ومرتع شبابه، فكتب فيها ما جادت به نفسه عنها واصفًا جمالها بأبيات في غاية الرّوعة، فيقول في قصيدة بعنوان "**لقاء وفراق**":

أصبوا إليها وأصبوا كلّما ذُكِرَت ... عندي اشتياقًا إلى مصر وأهليها

أرضٌ سماءٌ سواها دونها شرفًا ... فلا سماءُ ولا أرض تحاكيها

رُقتْ حواشيها واخضَرّ جانبُها ... وأجمل الأرض ما رقّت حواشيها

كأن أهرامها الأوطادُ باذخة ... هذي إلى جنبها الأخرى تساميها

ونيلها العذب ما أحلى مناظره ... والشمس تكسوه تبرًا في تواريها

كأنّها كعبة حجّ الأنام لها ... لولا التُقى قلت فيها جَلَّ بانيها[2]

كذلك كان "**أبو ماضي**" متفاعلاً بالحياة، ويعتبر بأنّ من يتشاءم فيها يظلم نفسه، فالكون بالنسبة إليه رَحيبٌ يمتلئ بالبهجة، فيقول في قصيدته "**كم تشتكي**":

كم تشتكي وتقول إنّك معدّم ... والأرض ملكك والسّما والأنجم؟

ولك الحقول وزهرها وأريجها ... ونسيمها والبلبل المتـرنّم

والماء حولك فضّة رقراقة ... والشمس فوقك عسجدٌ يتضرّم

والنور يبني في السفوح والذّرى ... دورًا مزخرفة وحينًا يهدم

فكأنّه الفنّان يعرض عابثًا ... آياته قدّام من يتعلّم

وكأنّه لِصَفَائِهِ وسَنائه ... بحرٌ تعوم به الطيور الحَوَّم

هَشَّت لك الدنيا فمالك واجمًا؟ ... وتبسَمت فعلام لا تتبسم؟[3]

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، ص139، 140.

[2] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي(أعماله الكاملة)، ص587.

[3] إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، ص185.

وينظر "**أبو ماضي**" إلى الكون والطبيعة بروح التفاؤل ويتذوّق الجمال[1]، حيث يقول يقول في قصيدته "**فلسفة الحياة**":

أيّهـــا الشـــاكي ومـــا بـــك داء ... كيـــف تغـــدوا إذا غـــدوت علـــيلا؟
إنّ شـــرّ الجُنَـــاة فـــي الأرض نفـــس ... تتـــوقّى، قبـــل الرّحيـــل الـــرّحيلا
وتـــرى الشـــوك فـــي الـــورد، وتعمـــى ... أن تـــرى فوقهـــا النّـــدى إكلـــيلا
هـــو عـــبءٌ علـــى الحيـــاة ثقيـــل ... مـــن يظـــنّ الحيـــاة عبئًـــا ثقـــيلا
والذي نفسه بغير جمـــال ... لا يرى في الوجود شيئًا جميـلاَ[2]

ويختم قصيدته بنصيحة تدعو إلى التفاؤل والجمال فيقول:

أيّها الشاكي وما بك داء ... كن جميلاً ترى الوجود جميلا[3]

واشتهر "**أبو ماضي**" بالقصص الشعري- أيضًا-، إذ كان ديوانه "**الخمائل**" مملوءًا بروائع هذا الفن القصصي الشعري البديع، مع الموسيقى العَذبة والألحان الجميلة[4]، وكمثال وكمثال على هذا اخترت مقطعًا من قصيدته "**أنت والكأس**" التي يَسْرد فيه قصة حائرة فيقول:

أنـــت والكـــأس فـــي يـــدي ... فلمـــن أنـــتِ فـــي غـــد؟
فاستشـــاطت لِفَـــوْلَتِي ... غضـــبًا فـــي تمـــرّد
وأشـــاحت بوجهها ... وادّعـــت أنّنـــي ردي!
كـــاذب فـــي صباصـــبتي ... مـــاذق فـــي تـــودّدي
قلـــت: عفـــوًا، فإنّهـــا ... ســـورة مـــن معربـــد
وجـــرى الصـــلح، والتقـــى ... ثغرهـــا ثغـــري الصـــدي
أذعنـــا القلـــب طائعًـــا ... بعـــد ذاك التمـــرّدِ
فنعمنـــا هيهـة ... بالـــولاء المجـدّد[5]

إلى آخر هذه القصة الحائرة، وفي قصيدة "**التينة الحمقاء**" يقول "**أبو ماضي**":

---

[1] مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، ص65.
[2] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي (أعماله الكاملة)، ص412.
[3] المصدر نفسه، ص414.
[4] محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه، ج1، ص366.
[5] إيليا أبو ماضي، ديوانه الخمائل، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1970، ص154.

وتينـــــة غضّـــــة الأفنـــــان باســـــقة قالـــت لأترابهـــا والصّـــيف يُحْتَضَـــرْ
"بـئس القضـاء الـذي فـي الأرض أوجـدني عنـدي الجمـال وغيـري عنـده النظـر"
"لأحْبِسَـــنَّ علـــى نفســـي عوارفهـــا فـــلا يُبـــيّن لهـــا فـــي غيرهـــا أثـــر"
"كـــم ذا أكلّـــف نفســـي فـــوق طاقتهـــا ولـــيس لـــي بـــل لغيـــري الفـــيء والثمـــر"
"الـــذي الجنـــاح وذي الأظفـــار بـــي وطـــر ولـــيس فـــي العـــيش لـــي فيمـــا أرى وطـــر"
"إنّـــي مفصّـــلة ضـــلّي علـــى جســـدي فـــلا يكـــون بـــي طـــول ولا قصـــر"
"ولست مثمرة إلاّ علـى ثقـة إن ليس يطرقني طير لا بشر"

* * * *

عـــاد الرّبيـــع إلـــى الـــدّنيا بموكبـــه فازّينـــت واكتســـت بالســـندس الشـــجر
وظلّـــت التينـــة الحمقـــاء عاريـــةً كأنّهـــا وتـــد فـــي الأرض أو حجـــر
ولـــم يطـــق صـــاحب البســـتان رؤيتهـــا فاجْتَثّهـــا، فهـــوت فـــي النّـــار تســـتعر
من ليس يسخو بما تسخوا الحياة بـه فإنّـه أحمق بالحرص ينتحر[1]

وهذه قصيدة من الفن القصصي الشعري، وفي نفس الوقت تعتبر قصيدة تعليمية انتهت بحكمة رائعة وهذا خير مثال على جودة شعر "**إيليا أبو ماضي**" وحكمته التي عكست مدى فطنته وذكائه، وكذا طريقة سرده للأحداث والقصص في قالب شعري راقٍ بمستوى أدبي جيّد.

هذا هو "**إيليا أبو ماضي**" واسع الثقافة، عميق الفكر، الذّي استطاع بشعره سبر النفس الإنسانية والغوص في أعماقها، فاستطلع سرها واكتشف خفاياها، كذلك عرّف هذا البحث بشخصيته المتميزة وروحه الطيبة، كما غاص في بعض أشعاره التي لا يستطيع كل شاعر على مجاراتها.

[1] إيليا أبو ماضي، الجداول، ص46.

شعره هذا الذي زخر بشتى المواضيع: **(الإجتماعية، السياسية، القصصية، التأملية، الفلسفية)** جعل منه شاعرًا فذا تشهد له الدراسات الأدبية بذلك.

كذلك تتبعت في هذا الفصل كل مرحلة من مراحل الحياة التي مرّ بها شاعرنا، وعرفت كذلك لِمَا كان ينسب إليه- في أغلب الدراسات- اسم "**الشاعر المهجري**"، وسبب ذلك يعود إلى ابتعاده عن وطنه منذ صباه وهجرته عنه من بلد لآخر، فهو لم يغادر لبنان إلى مصر فحسب، بل فقدته مصر هي الأخرى بعد أنْ ربّته بين أحضانها وجعلت منه شاعرًا وشابًا في الوقت ذاته، وتركها باكيةً عنه منطلقًا في هجرة ثانيةً إلى العالم الجديد مستقرًا في "**سنسناتي**" ثم هجرة ثالثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكل هذه التنقلات لم تُنْسي شاعرنا بلده الأول- الأم- ولا عروبته أو حتى قوميته، فلا طالما عبّر عن حبه لوطنه واشتياقه له في دواوينه الخمسة ولقد تعمدت عدم ذكر ذلك بصورة مفصلة في هذا الفصل وأجلته إلى الفصل الموالي لأنّ الحديث فيه قد كان يطول.

وآن للبحث بعد أنْ عرّفنا " **بأبي ماضي**" وعن حياته، وسبب نعته بـ "**الشاعر المهجري الأكبر**" أن يورد أروع ما أنشده عن حنينه لوطنه، ويبيّن مدى اشتياقه له من خلال ما كتبه وأجاد فيه من قصائد.

فكيف صاغ شاعرنا المهجري "**أبو ماضي**" حنينه واشتياقه إلى بلده لبنان؟.

فهرس الموضوعات

مقدمة	
الفصل الأوّل: الحنين إلى الأوطان ومساره التاريخي عبر العصور	
أوّلا: مقاربات نظرية في مفهوم: الحنين، الغربة، الوطن.	**05**
1- مفهوم الحنين لغة واصطلاحا	**05**
2- مفهوم الغربة لغة واصطلاحا	**08**
3- مفهوم الوطن لغة واصطلاحا	**12**
4- ما قيل في الحنين إلى الأوطان	**14**
ثانيا: المسار التاريخي للحنين إلى الأوطان	**17**
1- الحنين إلى الأوطان في العصر الجاهلي	**17**
2- الحنين إلى الأوطان في العصر الإسلامي	**19**
3- الحنين إلى الأوطان في العصر الأموي	**21**
4- الحنين إلى الأوطان في العصر العباسي	**25**
5- الحنين إلى الأوطان في العصر الحديث	**28**
الفصل الثاني: إيليا أبو ماضي وتجربته الشعرية	
أوّلا: إيليا أبو ماضي (حياته وثقافته)	**37**
1- ولادته ونشأته	**37**
2- هجرته إلى الإسكندرية	**40**
3- هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية	**42**
4- انضمامه إلى الرابطة القلمية	**44**
5- عودته إلى أرض الوطن	**47**
6- وفاته	**48**
7- شخصيته	**49**

8- ثقافته	49
ثانيا: التجربة الشعرية عند إيليا أبو ماضي	50
1- آثاره الشعرية	50
• ديوان تذكار الماضي	50
• ديوان إيليا أبو ماضي- الجزء الثاني	51
• ديوان الجداول	52
• ديوان الخمائل	53
• ديوان تبر وتراب	55
2- أطوار شعره	55
3- مميزات شعره	57
4- مختارات من شعره	60
الفصل الثالث: الحنين إلى الأوطان في نماذج من شعر إيليا أبو ماضي	
أوّلا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من ديوان "الخمائل"	67
ثانيا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من ديوان "تبر وتراب"	78
ثالثا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من باقي شعره	90
خاتمة	99
قائمة المصادر والمراجع	
فهرس الموضوعات	
ملخص البحث باللغة العربية	
ملخص البحث باللغة الإنجليزية	

❖ **القرآن الكريم.**

أوّلا: قائمة المصادر

1- امرؤ القيس، ديوانه، تح: محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، ط5، د ت.

2- إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1960.

3- إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1977.

4- إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1970.

5- إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي (أعماله الكاملة) ، قدم له وشرحه صلاح الدين الهواري، دار البحار، بيروت، ط1، 2013.

6- الجاحظ، رسائل الجاحظ، شرح وتعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط ت، ج1.

7- الجاحظ، كتاب الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، ج2.

8- عنترة بن شداد، ديوانه، مطبعة الآداب، بيروت، رخصة مجلس المعارف بنفقة خليل الخوري، ط4، 1893.

9- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، 1990، ج1.

10- أبو الطيب المتنبي، ديوانه، تح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر، بيروت، ط1، 2002.

11- المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية والإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004.

12- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ط ت، ج2، ج5، ج12.

ثانيا: قائمة المراجع

1- إبراهيم خليل، مدخل لدراسة الشعر العربي الحديث، دار المسيرة، عمان، ط1، 2003.

2- أشرف دعدوع، الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، دار نهضة الشرق، القاهرة، ط1، 2002.

3- إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة، بيروت، د ط ت.

4- عبد الباسط محمود، دراسة في لغة الشعر عند إيليا أبو ماضي، دار طيبة، القاهرة، د ط، 2005.

5- عبد الحميد بوسماحة، رحلة بني هلال إلى الغرب، وخصائصها التاريخية، الاجتماعية، والاقتصادية، دار السبيل، بيروت، د ط، 2008، ج1.

6- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1986، ج2.

7- خليل برهومي، الأعلام من الأدباء والشعراء، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993.

8- س. موريه، الشعر العربي الحديث 1700- 1980 (تطوره وأشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي)، تر: سعد مصلوح وشفيق السيد، دار غريب، لبنان، د ط، 2003.

9- سلمى خضراء الجيوسي، الإتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2002.

10- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، ط6، د ت.

11- صابر عبد الدايم، أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1993.

12- عفيف عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، حصاد القرن، دار جرير، عمان، ط1، 2007.

13- عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري (1945- 1962)، منشورات الجامعة، باتنة، الجزائر، د ط، 1997.

14- علي علي مصطفى صبح، من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ط1، 1987.

15- عيسى الناعوري، أدب المهجر، دار المعارف، مصر، ط3، 1977.

16- فؤاد القرقوري، أهم مظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيه، الدار العربية للكتاب، طرابلس، د ط، جوان 1968.

17- فاروق السيد عثمان، القلق وإدارة الضغوط النفسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، د ت.

18- فاطمة محمد حميد السويدي، الاغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1997.

19- فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1997.

20- فايز ترحيني، الدراما ومذاهب الأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1988.

21- فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، مطبعة اليازوري، عمان، ط1، 2006.

22- كاظم حطيط، الأعلام والرواد في الأدب العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط3، د ت، ج2.

23- كامل سليمان الجبوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتّى سنة 2002، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، 2002، ج1.

24- محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، دار الفكر، الأردن، ط2، 2006.

25- محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط ت.

26- محمد عبد المنعم خفاجي، حركات التجديد في الشعر الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 1990.

27- محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب الحديث ومدارسه، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ج1.

28- محمد عبد المنعم خفاجي، مدارس الشعر العربي الحديث، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2004.

29- مصطفى عبد الشافي، في الشعر الحديث والمعاصر، دار الوفاء، الإسكندرية، د ط د ت.

30- يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، -الحنين إلى الأوطان- دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 2008.

ثالثا: قائمة الرسائل العلمية والمجلات الأدبية

1- حسنونة المصباحي، شعراء المهجر وتجديد الشعر العربي، مجلة العرب الثقافي، د، عدد الخميس 2009/05/21.

2-حياة بوعافية، الإغتراب في شعر أبي العلاء المعري، دراسة موضوعاتية فنية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2009/2008.

3-محمد نجم الحق الندوي، تصوير الأقصوصة الطريفة في الشعر المهجري، مجلة كاليكوت، جامعة كاليكوت، كيلارا، العدد4، مارس 2012، ج2.

بسم الله الرحمن الرحيم

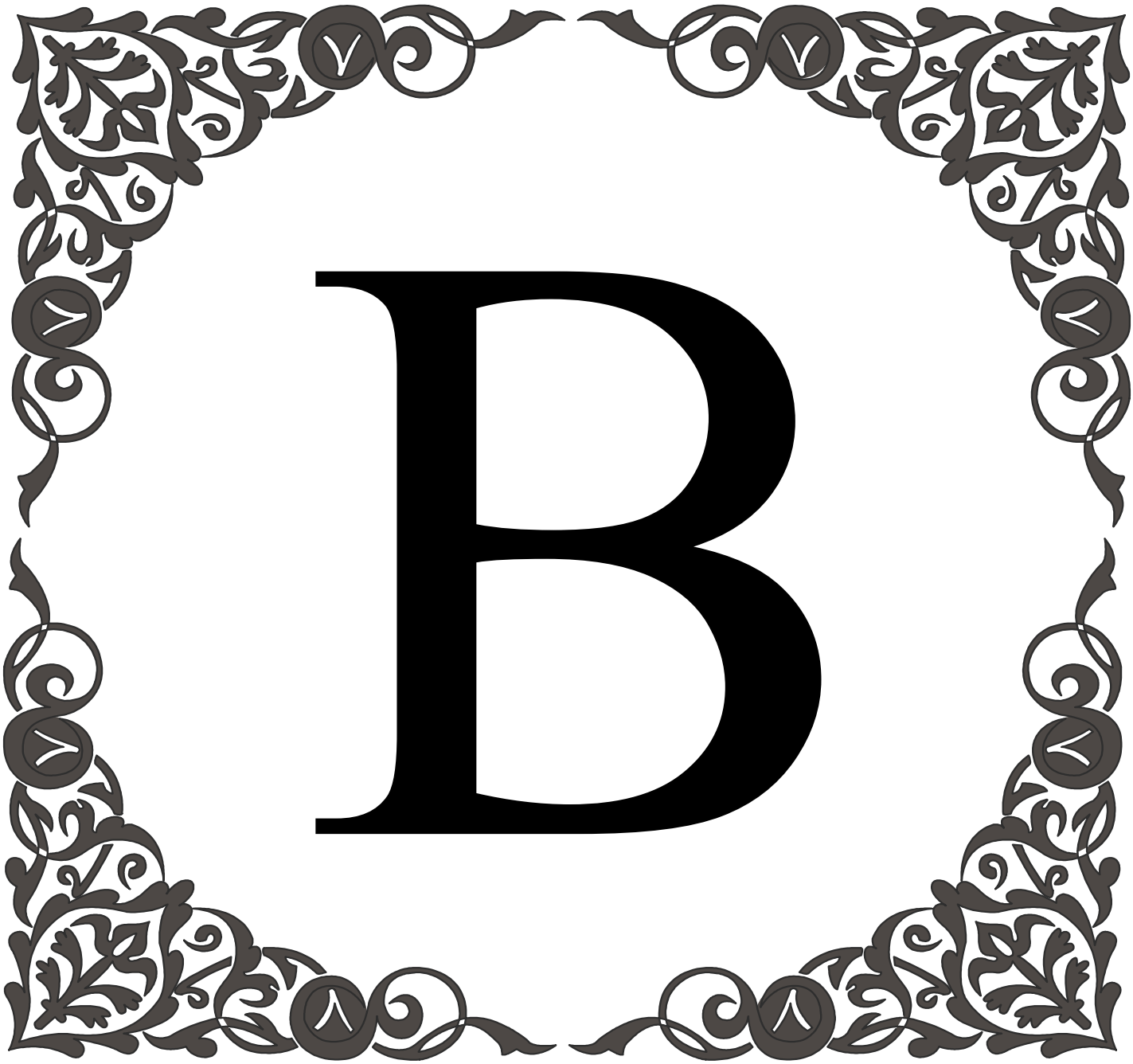
B

الفصل الأوّل: الحنين إلى الأوطان ومساره التاريخي عبر العصور

أوّلا: مقاربات نظرية في مفهوم: الحنين، الغربة، الوطن.

1-مفهوم الحنين لغة واصطلاحا

2-مفهوم الغربة لغة واصطلاحا

3-مفهوم الوطن لغة واصطلاحا

4-ما قيل في الحنين إلى الأوطان

ثانيا: المسار التاريخي للحنين إلى الأوطان

1-الحنين إلى الأوطان في العصر الجاهلي

2-الحنين إلى الأوطان في العصر الإسلامي

3-الحنين إلى الأوطان في العصر الأموي

4-الحنين إلى الأوطان في العصر العباسي

5-الحنين إلى الأوطان في العصر الحديث

الفصل الثاني

إيليا أبو ماضي وتجربته الشعرية

أولاً: إيليا أبو ماضي (حياته وثقافته)

1- ولادته ونشأته

2- هجرته إلى الإسكندرية

3- هجرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية

4- وفاته

5- شخصيته

6- ثقافته

ثانيًا: التجربة الشعرية عند إيليا أبو ماضي

1- آثاره الشعرية

2- ميزات شعره

3- أطوار شعره

4- مختارات من شعره

شكر و عرفان

الحمد لله الّذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الّذي بعث لإخراج النّاس من الظلمات
إلى النور، وعلى آله وصحبه شموس الضحى وقناديل الدجى.
وبعد:
إن القلم ليعجز أن يسطر كلمات الشكر والتقدير لكل من كان له فضل، أو مد يد العون في سبيل إتمام هذا البحث وإخراجه على هذا النحو.
فأخص بالشكر الجزيل أستاذي "**تيس ناصر محمد الحسني**" الّذي تابع تفاصيل هذا العمل من بدايته حتّى نهايته.
كما أتقدم بالشكر الجزيل لكلية اللّغة العربية وآدابها ممثلة في عميدها وأساتذتها.
كما أقدم خالص شكري وتقديري إلى نبع الحنان ومرفأ الأمان، إلى والدي الكريمين أدام الله عليها لباس الصحة والعافية، والشكر موصولا إلى من دفعني للترقي في معارج العلم وظل يمد لي يد العون، الخال العزيز، والأستاذ الكريم "**بوزيد رحمون**".
كما يطيب لي في هذا المقام أن أتقدم بوافر الشكر لأعضاء اللجنة المناقشة الّذين تفضلا بقبول النظر في هذا البحث مستحملين عناء تقويمه واستكمال نقصه.
كما لا يفوتني أتقدم بالشكر الوفير إلى فريق **مكتبة البيان**
على رأسهم الأخ: **فرحات إسماعيل**
والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين

زينب

لقد استقر في الأمة العربية أن من البيان لسحر،وأن من الشعر لحكمة ، وقد كان نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يستمع إلى الشعر ويثني على جيده ويحث بالرد على المشركين بسلاح الكلمة الذي يستعملونه كذالك، ولا تزال الدعوة موصولة بضمير شعرائنا، قد تنصرف منهم لفظة أو يسوء تعبير، ولكنهم في مجمل القول يعبرون عن الإنسان ومعاناته.

وقد اخترت هذا البحث الذي وسمته بالعنوان: " **الحنين إلى الأوطان في شعر إيليا أبو ماضي**" ،لأخص به في الدراسة جانباً من جوانب الشعر التي تعبر عن معاناة الإنسان ودواخله، فاخترت موضوع الحنين إلى الأوطان بالنسبة للشعراء، اخترت على وجه الخصوص الشاعر المهجري "**إيليا أبو ماضي**" ليكون سيد هذا الموضوع كونه شاعراً عاش حياته مغترباً عن وطنه،كذلك الحنين إلى الوطن من أكثر الحالات الشعورية التي تحس بها الذات الإنسانية باعتبارها حالة تتولد جراء استذكار الذات الإنسانية لفقدها عنصراً أساسيا في الحياة، فيعبر الشاعر عن هذا الشعور وعن الإحساس بالغربة من خلال سكب هذه الأحاسيس في قالب شعري يروق كل قارئ، وهذا ما يكسب الموضوع أهمية بالغة تستحق من كل باحث بذل مجهود خاص للخروج بأهم النتائج التي تولدها هذه الظاهرة في الذات الإنسانية.

ولهذه الأسباب حاولت من خلال هذا البحث تقديم قراءة لحنين الشاعر "**إيليا أبو ماضي**" لوطنه "**لبنان**"، وللبلاد العربية بصفة عامة من خلال الإطلاع على شعره إذ وجدت فيه مادة تستحق البحث، وقد طرحت جملة من التساؤلات تشكل جوهر إشكالية هذا البحث:

ما دلالة مصطلح الحنين إلى الوطن؟ وما هي المصطلحات التي يحيل إليها عنوان هذا البحث؟ وهل هذا الموضوع– أي موضوع الحنين إلى الأوطان – جديد في العصر الحديث أم هو قديم؟ وما هي أهم الدواعي التي حملت "**أبو ماضي**" على الإغتراب؟ وكيف تجلى الشوق والحنين إلى الأوطان في شعره؟ وكيف عبرت نفسه عن هذا الحنين؟

والإجابة على هذه الأسئلة شكلت بدورها هذا البحث الذي سار وفق خطة تمثلت في:

– **مقدمة:** تناولت أهمية الموضوع ، وسبب اختياره.

- **الفصل الأول:** بعنوان الحنين إلى الأوطان ومساره التاريخي عبر العصور.
- **الفصل الثاني:** تحت عنوان إيليا أبو ماضي وتجربته الشعرية.
- **الفصل الثالث:** وحمل عنوان الحنين إلى الأوطان في نماذج من شعر "**إيليا أبو ماضي**".

- ففي العنصر الأول تناولت المفاهيم «الحنين، الغربة، الوطن» في المجال اللغوي والإصلاحي الذي ظهر عند طائفة من العلماء متمثلين في الأدباء والنقاد وعلماء النفس.

أما العنصر الثاني فقد خص المسار التاريخي للحنين إلى الأوطان بدءًا من العصر الجاهلي وصولا إلى العصر الحديث متناولاً نماذجاً من كل عصر.

هذا فيما يخص الفصل الأول، أما الفصل الثاني فقد ضم تعريفاً بالشاعر الذي اخترته كأنموذج للدراسة، كما ضم بعض العناصر التي تخص تجربته الشعرية.

أما في الفصل الثالث فقد أدرجت تجليات الحنين إلى الأوطان في شعر "**إليا أبو ماضي**"، وركزت بالخصوص على ديوانه الأخيرين – "**الخمائل**"و"**تبر وتراب**"– إضافة إلى نماذج أخرى من باقي دواوينه.

ثم جاءت الخاتمة التي كانت خلاصة لأهم النتائج المتحصل عليها في البحث، وكذا قائمة المصادر والمراجع.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي كونه المنهج الأنسب.

كما اعتمدت لإنجاز هذا البحث على دراسات متعددة ساعدتني على ضبط خطته وكذا على تجميع ما تيسر من المعلومات في هذا المجال أهمها كتاب يحيى الجبوري « الحنين و الغربة في الشعر العربي– الحنين إلى الأوطان»، أما المصادر الأساسية في هذه الدراسة فقد كانت متمثلة في دواوين إليا أبو ماضي الشعرية وهي: "**الخمائل**"،"**الجداول**"،"**تبر وتراب**"،كما اعتمدت على ديوانه الذي جمع كل أشعاره المتمثلة في دواوينه الخمسة وهو طبعة جديدة صدرت خلال سنة **2013**م وقد قدم لهذا الديوان وضبطه وشرحه صلاح الدين الهواري، إضافة إلى كتب أخرى ومراجع استقيت منها معلومات حول كل مايخص شاعرنا "**أبو ماضي**" وحنينه إلى وطنه.

ولا أنكر في أنه واجهتني صعوبات جمة، ومنذ البداية سواءً كانت في اختيار هذا الموضوع وضبط عنوانه، أو في المعلومات المتحصل عليها، فعلى سبيل المثال واجهتني خلال دراسة هذا الموضوع صعوبة التوفيق بين الإختلافات الحاصلة فيما يخص سنة ميلاد "**أبو ماضي**" حتى في المرجع الواحد، وهذا الخلط في سنة الميلاد أدى إلى الخلط في تواريخ الأحداث الموالية كتاريخ هجرته إلى الإسكندرية أو إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من الصعوبات التي تواجه الباحث المبتدئ على الخصوص.

ولكن بفضل الله وتوفيقه استطعت أن أتغلب على الكثير من الصعوبات التى كانت تعترض طريقي، كما لا أنسى دور الأستاذ المشرف: الأستاذ تيس ناصر محمد الحسني الذي لم يبخل علي بالنصائح القيمة،كما لا أنسى كل من قدم لي يد العون من قريب أو من بعيد، فإلى كل هؤلاء شكر و تقدير ومحبة وعرفان مني إليهم جميعاً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملخص البحث:

هذا ملخص رسالة الماستر المعنونة بـ "**الحنين إلى الأوطان في شعر إيليا أبو ماضي**" وقد قامت هذه الدراسة على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ويشمل توضيحا لمعاني الحنين والغربة والوطن، كما يشمل أقوالا عن الحنين إلى الأوطان- هذا فيما يخص جزءه الأول- أما الجزء الثاني من هذا الفصل فاحتوى على المسار التاريخي للحنين إلى الأوطان عبر العصور بدءا من العصر الجاهلي وصولا إلى العصر الحديث.

الفصل الثاني: ويحمل عنوان "**إيليا أبو ماضي وتجربته الشعرية**"، وينقسم هو الآخر إلى جزئين فتناول الجزء الأول من هذا الفصل تقريرا مفصلا عن حياة الشاعر "**إيليا أبو ماضي**" وعن تنقلاته المختلفة من بلد لآخر، مما جعل منه شاعرا مهجريا بالدرجة الأولى، أما الجزء الثاني فتعلق بتجربة "**أبو ماضي**" الشعرية وميزات شعره.

الفصل الثالث: فكان هذا الفصل بمثابة الفصل التطبيقي لهذا البحث، إذ حمل تجليات الحنين إلى الأوطان في شعر "**أبو ماضي**"، وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة أجزاء :

1- الحنين إلى الأوطان في نماذج من " ديوان الخمائل" .

2- الحنين إلى الأوطان في نماذج من " ديوان تبر وتراب".

3- الحنين إلى الأوطان في نماذج من باقي شعره.

ثم اختتمت الرسالة بالفهارس العلمية ليسهل على كل قارئ الوصول إلى مبتغاه في وقت وجيز.

وصلى الله على سيدنا محمدا وعلى آله وصحبه أجمعين

الفصل الأول
الحنين إلى الأوطان ومساره التاريخي عبر العصور

أوّلا: مقاربات نظرية في مفهوم: الحنين، الغربة الوطن.

ثانيا: المسار التاريخي للحنين إلى الأوطان

الفصل الثاني
إيليا أبو ماضي وتجربته الشعرية

أوّلا: إيليا أبو ماضي (حياته وثقافته)

ثانيا: التجربة الشعرية عند إيليا أبو ماضي

الفصل الثالث
الحنين إلى الأوطان في نماذج
من شعر إيليا أبو ماضي

أوّلا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من ديوان "الخمائل"

ثانيا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من ديوان "تبر وتراب"

ثالثا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من باقي شعره

مقدمة

فهرس

الموضوعات

الخاتمة

قائمة

المصادر

والمراجع

الملخص

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الحنين إلى الأوطان في شعر إيليا أبي ماضي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

تخصص: أدب عربي فرع: أدب عربي حديث

إعداد الطالبة: إشراف الأستاذ:

- **زينب حرشة** **ناصر**

محمد الحسني تيس

السنة الجامعية: **2013/2012**

لقد حاول هذا البحث أن يستنطق الإغتراب في شعر إيليا أبو ماضي، وقد أسفرت هذه الدراسة الموضوعية التي اعتمدت فيها على المنهج الوصفي التحليلي الجامع لمحاسن المناهج الأخرى عن جملة من النتائج تلخصت في :

– **مقدمة:** التي أبرزت أهمية الموضوع، والتي ترى أن هذه الظاهرة – أي ظاهرة الحنين إلى الأوطان من بين الظواهر الإجتماعية الشائعة التي لا يمكن أن يغفل عنها، خاصة إذا وجدت لدى الشعراء دون غيرهم.

– الفصل الأول : الذي وضح معنى الحنين والغربة وكذا الوطن بالرجوع إلى السديم المعجمي ومن خلال البحث في بعض المراجع التراثية والحديثة التي تطرقت إلى توضيح هذه المعاني من خلال عدة مفاهيم قد تم التركيز عليها كالمفهوم النفسي والمفهوم الإجتماعي، ومن خلال ذلك العرض وجدت ارتباط المعنى المعجمي لمصطلحات الحنين والغربة والوطن بالمعاني الاصطلاحية التي توصل إليها الأدباء والنقاد في تلك المفاهيم، كما توصلت من خلال عرض معاني هذه المصطلحات إلى نتيجة تسفر عن ارتباط مصطلحي الغربة والحنين ببعضها، فكلاهما مكمل للآخر إذ أن الحنين يجيء كنتيجة حتمية للغربة.

كما كشف هذا الفصل عن المسار التاريخي للحنين إلى الأوطان، فخرج بنتيجة هامة ألا وهي أن ظاهرة الإغتراب والحنين إلى الأوطان هي ظاهرة إجتماعية قديمة قدم الوجود الإنساني فلطالما أحسن الإنسان البشري بالغربة سواء منذ العصر الجاهلي أو في العصور المتقدمة وأن هذه الظاهرة كانت نتيجة لدواعي أهمها الفقر والحروب.

وفي الفصل الثاني: عمدت الدراسة إلى إبراز أهم الرحلات التي جعلت من شاعرنا "**أبو ماضي**" شاعرا يستحق لقب الشاعر المهجري الأكبر كما عمدت الدراسة في هذا الفصل إلى إبراز أهم الأسباب التي دفعت به إلى الهجرة وذلك من خلال الحديث عن مولده ونشأته وحياته، ثم الحديث عن تجربته الشعرية التي سكب فيها شعوره بالغربة وإحساسه بالوحشة والحنين إلى دياره الأولى.

– **أما في الفصل الثالث:** والأخير فقد كشف الدراسة الموضوعية عن أهم القصائد التي تدور في فلك الإغتراب والغربة عند "**إيليا أبو ماضي**" والتي انعكست في حنينه إلى وطنه

وإلى البلاد العربية، فعبر الشاعر فيها عن همومه وقلقه وألمه، ومدى إحساسه باليأس والذّل والضياع تارة وبالأمل في الرجوع إلى تلك الديار ولقاء الأهل والأحبة تارة أخرى، فخرجت تلك المشاعر وذلك الانفعال من قوقعة الكتمان لما يختزنه في قلبه من آلام فاض بها الكيل، فخرجت لتوضح لنا عمق اغترابه وحنينه لوطنه متمثلة في قصائد شعرية تثير الشجن والألم خاصة وأن التناغم لم يكتف بتصوير همومه وحنينه فقط، بل كان إحساسه أعمق من ذلك بكثير، إذ عمد إلى وصف حنين أقرانه من المغتربين معه وهمومهم ومعاناتهم، ولعلّ هذا الوصف أو الإحساس الأسري من أهم ما تميز به "**أبو ماضي**" عن غيره من الشعراء – المغتربين على وجه الخصوص– وقد ركزت في هذا الفصل على ديوانين اثنين لهذا الشاعر هما "**ديوان الخمائل**" و"**ديوان تبر وتراب**" كما ذيلت هذه الدراسة بنماذج أخرى من باقي شعره موضحة هي الأخرى مدى معاناة الشاعر واشتعال قلبه حرقة ولوعة بالعودة إلى وطنه الحبيب.

– وبعد هذه هي أهم النتائج التي تم التوصل إليها وأرجوا من الله أن أكون قد وفقت والحمد لله رب العالمين.

أوّلا: مقاربات نظرية في مفهوم الحنين والغربة والوطن

الحنين إلى الأوطان غريزة في النفوس، سواء أكان عند الإنسان أم الحيوان، يتجلى ذلك في حنين الإبل إلى أوطانها ومعاطنها، وحنين الطير إلى عشه مهما أخذ وبعد عنه، يعود إلى وكره قاطعا مئات الأميال، بل الآلاف حتّى يجد قرارة نفسه في وطنه، وكذلك يقال في بقية الحيوانات، كالقطط والكلاب، إذ أن الكلاب أشد حنينا ووفاء من بقية الحيوان، فإذا كان هذا حنين الحيوان، فكيف لا يحن الإنسان إلى أرضه ووطنه مهما عاش من حرمان وبؤس، وعانى من الظلم والجوع والفاقة. [1]

وقد وردت أقوال كثيرة عن الأوطان والحنين إليها في كتب ومراجع شتى؛ لكن قبل التطرق إلى هذا وذاك يجدر بطبيعة الحال ضبط بعض المصطلحات كالحنين والغربة والوطن من جانبها اللغوي والاصطلاحي.

1- مفهوم الحنين:

ورد لفظ "حنين" في العديد من المعاجم، ففي معجم الوسيط- مثلا- جاء الحنين بمعنى الرقة والتراحم والاشتياق والعطف، فالحنان: "رقة القلب والرحمة، وفي التنزيل العزيز "وحنانا من لدنا" والحنة رقة القلب، والحنون: الشفيق وتحنن عليه: ترحم، إستحن إلى الشيء واشتاق". [2]

والحنين: الشوق (حنا) عليه حنوا: عطف. [3]

وفي "**لسان العرب**" نقلا عن "**ابن منظور**": "الحنين من فعل حنّن والحنّان من أسماء الله- عز وجل- وجاءت بمعنى الرحيم، ويقال: حن قلبي إليه، فهذا نزاع واشتياق من غير

---

[1] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي- الحنين إلى الأوطان، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2008، ص5.

[2] المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية والإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص203.

[3] المصدر نفسه، ص204.

صوت... والحنان الّذي يحن إلى الشيء، والحنة بكسر الحاء رقة القلب، إمرأة حنّانة تحنّ إلى زوجها الأوّل وتعطف عليه، ومصدر الفعل: الحنين".[1]

وكذلك أورد "**ابن منظور**" عدة مسميات وصفات للحنين في قوله: "والحنان الرحمة، والحنان البركة، والحنان الهيبة، والحنان وقار...". [2]

وجاء في **القاموس المحيط** لصاحبه "**الفيروز أبادي**": "الحنين: الشوق وشدة البكاء والطرب، أو صوت الطرب عن حزن أو فرح"[3] أما في المعنى الاصطلاحي: فالحنين عند الإنسان... يتصل اتصالا وثيقا بالمفهوم المكاني للغربة، فالغربة الشائعة عندهم هي الناتجة عن البعد عن الوطن، فيتبعها الحنين إليه، غير أن مفهوم الحنين قد تعدد على مر العصور بتعدد مفاهيم الغربة التي أخذت أبعادا أكبر من مجرد البعد عن الوطن، إذ نافسها الخروج المعنوي فأصبح الشعراء يحسون بالغربة داخل أوطانهم، والحنين في الحالتين يعني:

"الإنتماء إلى شيء مفقود، سواء أكان ماديا أم معنويا، فقد يغترب الإنسان عن وطنه فيحن إلى أشياء مادية كالقرية وما يحيط بها من علاقات عامة، وقد يغترب عن تقاليد زائفة حملها فكر أجنبي عن البلاد فيحن إلى قيمته الأصلية، وإلى نبعها الصافي، وتتفاوت درجات الحنين في كلّ هذه الحالات، وقد تبلغ القيمة التي لا يستطيع معها المغترب أن يعيش في ظل الواقع الخارجي إلا متنكرا مستوحشا، ولعلّ هذا ما يطلق عليه علم النفس "**Nostomania**" وهو الحنين إلى الوطن".[4]

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ط ت، مادة (ح.ن.ن)،ج2، ص1029.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص1030.

[3] الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، د ط، 1999، ج1، ص213.

[4] عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث (1945- 1962)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، د ط، 1997، ص20.

ويقول "**حازم القرطاجني**" في معرض حديثه عن الحنين: "وأحسن الأشياء التي تعرف بتأثيرها إذا عرفت هي الأشياء التي فطرت في النفوس على استلذاذها، أو التألم منها، أو ما وجد فيه الحنان من اللذة والألم، كالذكريات للعهود الحميدة المنصرمة التي توجد النفوس، تلتذ بتخيلها وذكرها، وتتألم من نقيضها وانصرامها...".

فأهم المواضيع وأحسنها- حسب حازم القرطاجني- هي تلك التي تشترك كلّ النفوس بالتعلق بها، وهي الحنين إلى الديار والذكريات الماضية، وتجد لذة في استرجاعها كما تتألم لفقدانها.[1]

أما من الأدباء والنقاد المحدثين نجد فاطمة طحطح قد تناولت هذا الموضوع ودراسته من كلّ جوانبه فعرفت الحنين بقولها: "الحنين هو رحلة في الزمان، وعودة إلى الوراء لمعايشة الماضي شعرا، واسترجاعه واستحضاره على مستوى المكان والأهل والوقائع".[2]

وهذا ما عبّر عنه الفيلسوف الروسي (يانكلفتش) "... بأن المقاومة الوحيدة للزمن وحتميته هي الحنين والحسرة على الماضي...". [3]

ويقول عمر بوقرورة: "... إذا كانت الغربة تعني الشقاء والضياع والألم، فإنّ الحنين بكل طاقاته يعني حياة السرور والبهجة والفرح، لأنّه يجسد لحظة أمل يعيشها الشاعر في ساعة من ليل أو نهار، وإذا كانت الغربة تعني البعد والنوى، فإنّ الحنين يعني القرب والعودة، تفصل بينهما لحظة زمنية معينة يسبقها الشعور الطاغي بالحنين إلى الوطن،... والحنين عاطفة سامية أودعها الله في الإنسان منذ الأزل، وهي إحساس وشوق، ولولاها ما

---

[1] فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص15.

[2] المرجع نفسه، ص35.

[3] المرجع نفسه، ص29.

وجد مهاجرا صابرا، أو معتزلا متعففا، فالحنين إذا دواء ناجع لكل الغرباء فأينما وجدنا غريبا قابلنا حنينه، وبقدر مفهوم الغربة يكون الحنين...". [1]

ومن خلال هذا التعريف يستنتج أن الحنين هو نتيجة لكل متغرب عن الوطن، وعليه وجب التعرض لمفهوم الغربة نظرا لهذا التلازم القوي بينه وبين الحنين.

2- مفهوم الغربة:

إنّ مقابل كلمة الغربة والاغتراب في اللّغة الإنجليزية "**Aliénation**" والفرنسية "**Aliénation**" وأصلها في الكلمة اللاتينية ألييناتو "**Alienatio**"، ويشير الاغتراب في تلك اللغات إلى حالة تحول الكائن إلى خارج ذاته، أو تجاوز ذاته، وقد استخدمت كلمة الاغتراب في العلاقات الإنسانية لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة، أو الانسلاخ "**Détachement**" سواء عن الذات أو عن الآخرين. [2]

أما كلمة "غربة" في اللّغة العربية فقد وردت في المعاجم العربية بأكثر من دلالة ولعلّ أبرزها وضوحا تلك التي ترتبط بالمكان والانتقال، فقد أوردها **ابن منظور** في معجمه "**لسان العرب**" بمعنى البعد والنوى حيث يقول:

"الغربة والغروب بمعنى النزوح عن الوطن والإغتراب والتغرّب كذلك، نقول منه تغرّب واغترب، ومنه غرّبه الدهر، ورجل غريب بعيد عن وطنه، والجمع غرباء، والأنثى غريبة".[3]

وجاء أيضا في المعجم الوسيط: "غرب عن وطنه- غرابة وغربة: ابتعد عنه، والشمس (غربة) غروبا، اختفت في مغربها، وفلان غاب أي بعد عن وطنه، والقوم ذهبوا...". [4]

---

[1] عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، ص18.

[2] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص16.

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (غ.ر.ب)، ج5، ص3225.

[4] المعجم الوسيط، ص895.

ويشير الجاحظ في معجمه "الحيوان" عن الغربة بأن العرب قديما كانوا يتشاءمون من الغراب، وفي ذلك يقول: "ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والإغتراب والغريب"، ويعلل الجاحظ هذا الإلتحام بين لفظتي الغربة والغراب فيقول:

"إنّما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنّجعة وقع في مرابط بيوتهم يتلمس ويتقمّم فيتشاءمون ويتطيّرون منه إذا كان لا يعتري".[1]

والمعنى اللغوي والاصطلاحي للغربة والإغتراب واحد، فكلاهما يعني الذهاب والتنحي عن الناس، ولذلك يعرف الشيخ الإسلام الهروي الأنصاري الإغتراب بأنّه: "أمر يشار به إلى الإنفراد على الأكفاء".[2]

ويعرف "**علي دعدوع**" أن الغربة هي: "البعد عن الوطن، وأن الغريب هو المبعد عن وطنه لأسباب سياسية بشكل عام، وكذلك من معانيها النفي عن الوطن والإنفصال عن الأرض التي يعيش فيها الإنسان".[3]

كما "... تعني الغربة النوى والألم والشؤم والفراق والبين والهجر لأسباب سياسية أو دينية أو إجتماعية، وقد تكون نفسية أو روحية، وقد استخدمت هذه الكلمة في كافة السياقات– الاجتماعية والدينية والسياسية– مع العلم أن هذه السياقات المذكورة تنعدم إذا لم تتوفر لها أبعادها ومثيراتها، كالخوف، والقلق، والحرمان، والاستبداد، أو العجز عن التلاؤم مع المحيط الواقعي...".[4]

وقد يدل مصطلح التغرب على إبعاد شخص عن مسقط رأسه، أو إلزامه بالإقامة خارج مكان معين بعيدا عن أشخاص يتأسف لهم، ويحمل مصطلح لفظ التغرّب فكرة التفريق

---

[1] الجاحظ، كتاب الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، دت، ج2، ص316.

[2] فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص33.

[3] أشرف علي دعدوع، الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة، دار نهضة الشرق، القاهرة، ط1، 2002، ص20.

[4] ينظر، عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، الصفحات 13– 15– 16.

والاقتلاع، كما يحيل بالظروف إلى فضاء محدد، وليس إلى عائلة أو أشخاص، وبالتالي فإنّ الفرد لا يمكن أن يتغرب بصفة إرادية عن عائلته أو عن إخوته أو عن السلالة التي ينتسب إليها. [1]

وعليه فإنّ التعريف العام لمصطلح الغربة يعني: الإنفصال وعدم الإنتماء، ويعرف الإغتراب أيضا بأنّه وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته والبيئة المحيطة له، وبصورة تتجسد في الشعور بعدم الإنتماء والسخط والقلق، ولذلك يمكن القول بأن الغربة ظاهرة إنسانية وجدت في مختلف أنماط الحياة الاجتماعية، وفي كلّ الثقافات التي كان للإنسان دور كبير في بنائها، فحيث يكون الإنسان يوجد الاغتراب وإن اختلفت درجته.[2]

ومن خلال التعريفات السابقة يلاحظ استخدام مصطلح "الغربة" بطرق مختلفة ومعاني عديدة، حتّى أصبح يعاني من الغموض الشديد، "فنادرا ما يتفق الباحثون على تحديد مفهومه، فهم يذهبون مذاهب مختلفة في تعريفه فلا يستطيعون تحديد أنواعه ومصادره ونتائجه السلوكية على الأفراد والمجتمع، فيقعون في الخلط مما يزيد من غموض هذا المصطلح وضبابيته".[3]

وبالرغم من هذا الغموض الحاصل إلا أنني حاولت قدر الإمكان ضبط هذا المصطلح، فهذا البحث لا يستحق التوسع في هذا المجال، فالمهم في هذا الموضوع هو المفهوم الّذي يعني أن الغربة هي الابتعاد عن الأهل والغياب عن الوطن، لأن صور الغربة والإغتراب كثيرة أهمها- هذا الّذي أخصه بالبحث- الإغتراب عن الوطن، ومنها أيضا الإغتراب عن المجتمع داخل الوطن والإغتراب عن الذات الّذي يعني: "فقدان الإنسان

---

[1] عبد الحميد بوسماحة، رحلة بني هلال إلى الغرب، وخصائصها التاريخية، الإجتماعية، والاقتصادية، دار السبيل، بيروت، د ط، 2008، ج1، ص26.

[2] فاطمة محمد حميد السويدي، الإغتراب في الشعر الأموي، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1994، ص8.

[3] حياة بوعافية، الإغتراب في شعر أبي العلاء المعري، دراسة موضوعاتية فنية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2009/2008، ص10.

المغزى الذاتي والجوهري للعمل الّذي يؤديه وما يصاحبه من شعور بالفخر والرضا، وهذا ما يسمى في علم النفس بهجر الذات"[1] وكل هذه الأنواع مريرة وقاسية، يشعر صاحبها بالألم والوحشة والمرارة.

وخلاصة القول هي أن الغربة التي تعني الإبتعاد عن الأهل والأبناء والغياب عن الوطن ظاهرة قديمة رافقت المجتمعات البشرية منذ بدء الخليقة، لها مفاهيم عدة أهمها: "الشعور بالحنين من جراء الوحدة والوحشة".[2]

ومن خلال ما تقدم من تعريفات لمفهومي الغربة والحنين يلاحظ أن هناك جدلية بين المفهومين، فأحدهما متضمن في الآخر، فهناك "جدلية بين اللذة والألم كما بين الغربة والحنين، أو الحاضر والماضي، فأحدهما متضمن في الآخر فالغربة تستدعي الحنين، والحاضر يستدعي الماضي، واللذة تستدعي الألم، وعليه فغرض الغربة والحنين- انطلاقا من هذا الفهم- يعد من الدوافع الفطرية في النفس الإنسانية، كما أنّه يتسم بالشمولية، ويرتبط بالوجود الإنساني أينما وجد في كلّ الأزمان، إنّه أكثر الأغراض- على حد تعبير حازم القرطاجني- إتصالا بالنفس البشرية، يشترك فيه العامة والخاصة، هذه الجدلية بين اللذة والألم وبين الغربة والحنين، وهذه المفارقة بين الإحساسين المتناقضين، وتواجدهما في آن واحد كما يتواجد الماضي والحاضر، محور القصيدة الحنينية حيث جعل التشوق والحنين إلى الديار في المرتبة الأولى من الشعر على وجه الخصوص. [3]

ونتيجة ما يمكن الخروج به بعد التعرض لمصطلحي "الحنين والغربة" هو أن الحديث عن الغربة يستدعي بالضرورة الحديث عن الحنين والعكس صحيح، إذ أن الحديث عن

---

[1] فاروق السيد عثمان، القلق وإدارة الضغوط النفسية، دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، ط1، د ت، ص19.

[2] عمر بوقرورة، الغربة والحنين في الشعر الجزائري الحديث، ص13.

[3] فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص15.

الحنين يتطلب مفهوما للغربة وبالتالي إذا استخدمت في بحثي هذا مصطلحات الغربة والاغتراب فلا ضرر لأن ذلك يحيل مباشرة إلى معنى الحنين- بطبيعة الحال-

فما هو الوطن؟

3- مفهوم الوطن:

جاء لفظ "وطن" في المعاجم العربية بمعنى مربض الإبل والغنم، ثمّ صار يعني المنزل الّذي يتخذه الإنسان سواء أكان مسقط رأسه أو لم يكن.

"فالوطن حيث أقمت من بلد أو دار"، ثمّ توسع مفهوم الوطن فصار كلّ مكان ينزل فيه الإنسان ويعده مستقرا ومقاما ووطنا. [1]

وقد ورد في "**لسان العرب**" معنى للوطن وهو كما يلي:

"الوطن المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله، والجمع أوطان، وأوطان الغنم والبقر: مرابضها وأماكنها التي تأوي إليها، قال الأخطل: كروا إلى حريتكم تعمرونها كما تكر إلى أوطانها البقر، يقال أوطن فلان ارض كذا وكذا أي اتخذها محلا ومسكنا يقيم فيها، والموطن المشهد من مشاهد الحرب، وفي التنزيل العزيز: **+لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ_**، أما المواطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له...".[2]

ويختلف مفهوم الوطن في العصور القديمة عن مفهومه في العصور الحديثة، فقد كان مفهوم الوطن في القديم ضيقا يشمل الحي ومحل الإقامة، ثمّ صار يتسع كلّما تقدم الزمن، ومنذ القديم ارتبط الشوق والحنين بالوطن، فصار الحنين إلى الأوطان شائعا في كلّ العصور، سواء الوطن هو القبيلة، أو الحي أو الشعب والأمة الكبيرة، وسواء أكان الوطن مسقط الرأس أم لم يكن، فالحنين إلى الأوطان انتماء وولاء وحب وحنين، ولا يقتصر هذا الحب والحنين على الإنسان بل يشمل الحيوان أيضا، يقول ابن دريد: "حنين الإبل ونزوعها

---

[1] ينظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص9.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة (و.ط.ن)، ج12، ص4868.

إلـى أوطانهـا وأولادهـا"[1] وفـي كـلّ هـذه المعـاني جـاء ذكـر الـوطن فـي الشـعر القـديم، ففـي الجاهلية قال عنترة بن شداد:

أحرقني نار الجوى والبعـاد بعـد فقد الأوطـان والأولاد

شاب رأسي فصار أبيض اللون بعدما كـان حالكا بالسواد[2]

وهـي أبيات قالهـا عند مـا بلغـه أسر ولديـه "غصـوب وميسرة" مـع صـديق لـه من بنـي عبس... فـي حصـن العقـاب وهـو مكـان فـي اليمن فخـرج يريـد خلاصـهم وفـي ذلـك اشـتياق لوطنه.

وجاء ذكر الوطن في الشعر الإسلامي في شعر عمر بن أبي ربيعة فيقول:

ذكر البلاط وكل ساكن قرية بعـد الهـدو تهيّجه أوطانـه

وكان الوطن عند الجاهلي الأهل والديار، وكل منزل ينزله ويحن إليه، ولما استقرت القبائـل فـي القـرى والمـدن صـار مفهـوم الـوطن واضـحا هـو الأرض والبلـد بحـدوده وأهلـه ومغانيه، وصار الشعر يردد أسماء المدن ويتغنى بجمالها ويحن إلى مراعيها، وكثر بعد ذلك الإنتساب إلى المدن والاعتزاز بها، والمدن أوطان.

والشـعر الّـذي ذكـر الـوطن كثيـر فـي صـدر الإسـلام وحتّـى فـي العصـر الجـاهلي والعصور التالية، وكثر ذكر الوطن والحنين إلى الأوطان في التراث الإسلامي.

وبعد أن حاولت ضبط مفاهيم "الحنين، والغربة، والوطن" سأحاول أن أورد بعض ما قيل في الحنين إلى الأوطان، فقد وردت أقوال كثيرة وحكم غزيرة فيما يخص هذا الشأن

4- ما قيل في الحنين إلى الأوطان:

مهد الجاحظ لرسالة الحنين إلـى الأوطـان بمنتخبات من أقوال الحكمـاء والأدبـاء من العرب والعجم في حب الأوطان، والتعلق بها والولاء لها، من ذالك مختاراته: [1]

---

[1] يحيى الجبوري، الحنين والغربة تفي الشعر العربي، ص10.

[2] عنترة بن شداد، ديوانه، مطبعة الآداب، بيروت، رخصة مجلس المعارف بنفقة خليل الخوري، ط4، 1893، ص34.

- كان يقال: أرض الرجل ظئره، وداره مهده، والغريب النائي عن بلده المتنحي عن أهله كالثور الناد عن وطنه.
- وقال آخر: الكريم يحن إلى جنابه، كما يحن الأسد إلى غابه.
- وقال آخر: إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه. [2]
- وقيل لبعض الأعراب: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان، قيل فما الذلة؟ قال: التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان. [3]
- وقال آخر: عسرك في دارك، أعز من عسرك في غربتك، وأنشد قائلا:

لقرب الدار من الإقتار خير من العيش الموسع في الإغتراب[4]

- وقال آخر:

ألا ليت شعري والحوادث جمة متى تجمع الأيام يوما لنا الشملا

وكل غريب سوف يمسي بذلة إذ بأن عن أوطانه وجفا الأهلا

ومما يؤكد حب الأوطان قوله عز وجل حين ذكر الديار يخبر عن مواقعها من قلوب عباده: **(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ)**.[5]

وقال عز وجل: **+وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا_**.[6]

- وقال آخر: من إمارات العاقل بره لإخوانه، وحنينه لأوطانه ومداراته لأهل زمانه،[7]

وقيل الغربة كربة، والقلة ذلة، وقال:

---

(1) ينظر، يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص10-11.

(2) ينظر، الجاحظ، رسائل الجاحظ، شرح وتعليق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج1، ص285.

(3) المصدر نفسه، ص303.

(4) المصدر نفسه، ص286.

(5) سورة النساء، الآية 66.

(6) سورة البقرة، الآية 246.

(7) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص288.

لا ترغبوا إخوتي في غربة أبداً إنّ الغريب ذليـل حيثما كانا[1]

- وقال آخر: يحن اللبيب إلى وطنه، كما يحن النجيب إلى عطنة.

وكـان حـب الأوطـان والحنـين إلـى الأهـل والـديار مرتبطـا فـي نفـس البـدوي بالوفـاء، وحسن الخلق، وكرم الأصل، وفي هذا قيل: "إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، وكرم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانـه، وبكائه على ما مضى من زمانه".[2]

- ومن أقوال الأمم الأخرى: قالت العجم: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها تواقة.
- وقالت الهند: حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لأن غذاءك منهما وغذاؤهما منه.[3]
- وقال آخر: مبليك إلى مولدك من كرم محتدك.
- ويروي الجاحظ حادثة عن رجل حن إلى العرب والمتحدثين باللغة العربية وفي ذلك يقول: قال أبو عثمان: رأيت عبدا أسود حبشيا لبني أسيد، قدم من شق اليمامة فصار ناظورا، وكان وحشيا مجنونا لطول الغربة مع الإبل، وكان لا يلقي إلا الأكرة فلا يفهم عنهم، ولا يفهمون عنه، ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إلي وسمعته يقول: لعن الله أرضا ليس بها عرب، قاتل الله الشاعر حيث يقول:

حـر الثرى مستعرب التراب

أبا عثمان، إنّ هذه العريب في جميع النّاس كمقدار القرحة في جلد الفرس، فلولا أن الله رزق عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم، أترى الأعيار إذا رأت العتاق لا ترى لها فضلا! والله ما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقتلهم إذ لا يدينون بدين إلا لظنه

---

[1] المصدر نفسه، ص289.

[2] يحيى الجيوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص14.

[3] الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص285.

بهم، ولا ترك قبول الجزية منهم إلا تنزيها لهم، وقيل لأعرابي ما السرور؟ فقال: أوبة بغير خيبة وألفة بعد غيبة".[1]

[1] ينظر، الجاحظ، رسائل الجاحظ، ص301- 302.

ثانيا: المسار التاريخي للحنين إلى الأوطان

القول بأن محبة الأوطان قديمة، ليس ضربا من الاكتشاف، فقد كانت منذ كان الإنسان، ففي الجاهلية كان وقوف الشعراء على الأطلال، وبكاء الديار، إذ كانت حياة العرب تدور على الرحلة من كلأ إلى كلأ، ثمّ سارت محبة الأوطان عبر العصور.

- ففي العصر الإسلامي لما خرج المسلمون- بمجيء الإسلام- من أوطانهم مجاهدين في سبيل الله، فبكوا ديارهم، ونعوا غربتهم وأنفسهم.
- أما في زمن بني أمية الّذي زادت فيه حدة الإغتراب نتيجة للظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتغييرات الجذرية التي شهدها هذا العصر.
- وفي العصر العباسي الّذي قل فيه الحنين إلى الأوطان مقارنة بالعصور- الجاهلي، الإسلامي- الأموي- وذلك لاستقرار الشعوب وتكون المدن.

فمحبة الأوطان- كما سبق وأشرت- عامة تشترك فيها كلّ الشعوب والأمم، وهل يستطيع أحد أن ينسى وطنه، وقد ترك فيه أباه، وأمه، وإخوته وأحبته، وترك ملاعب صباه وآماله وأحلامه؟[1] وهذا ما أريد أن أستشفه بالسير في رحلة عبر العصور، واكتشاف إحساس كلّ غريب بعد عن وطنه انطلاقا من العصر الجاهلية وصولا إلى العصر الحديث محاولة الإجابة على السؤال الّذي قد يتبادر في ذهن كلّ باحث حول الخوض في هذا الموضوع: ما هي الصورة التي رسمها الشعراء لحنينهم إلى أوطانهم عبر سائر العصور؟ وهذا ما سأحاول الإجابة عليه في هذه الدراسة.

1- الحنين إلى الأوطان في العصر الجاهلي:

إنّ ظاهرة الحنين إلى المكان بارزة في الشعر الجاهلي، ويكفي أن نقرأ المعلقات وشعر الجاهليين بصفة عامة حتّى تسترعي انتباهنا هذه الظاهرة، فالأطلال الجاهلية كانت تشكل مادة غريزة في هذا الموضوع، ويكفي أن يذكر "امرأ القيس" كأوّل من بكى الديار،

[1] شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، ط6، د ت، ص257.

واستبكى الرفاق عليها، بل هو أوّل غريب من أصحاب المعلقات والذي يفتتح معلقته بالبكاء على ذكرى الأحبة والديار قائلا:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل[1]

ويشكو غربته في موضوع آخر من شعره فيقول:

أجارتنا إنّا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب [2]

وإذا ما قرأنا شعر عنترة بن شداد نجده كذلك يبكي لفقدانه الأوطان والأولاد فيقول:

أحرقتني نار الجوى والبعاد بعد فقد الأوطان والأولاد

شاب رأسي فصار أبيض لونا بعد ما كان حالكا بالسواد

وتذكرت عبلة يوم جاءت لوداعي والهم والوجد بادي

وهي تذري من خيفة البعد دمعا مستهلا بلوعة وسهاد[3]

فحب الأوطان في أبياته هاته عميق، فهو مقرون بحب الأولاد والحنين إليه كحنينه إلى الأولاد، والوطن مقرون بحب الحبيبة.

والشاعر الجاهلي عزيز دائما في وطنه بين قومه فإن نأى عن أهله وديياره، فهو غريب ذليل مهان، وقد عبر "عمرو بن هبيرة" عن هذا الهوان[4] في قوله:

ومن تك في غير العشيرة داره يغضب فتبرد غير مرضي مغاضبه

يرى كلّ صوت منهم فوق صوته ولا يجوبو منه الّذي هو واجبه

ولطالما كان الجاهلي يفضل الفاقة في الوطن على العيش الموسع في الغربة: [5]

لقرب الدار في الإقتار خير من العيش الموسع في اغتراب

---

(1) امرؤ القيس، ديوانه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط5، د ت، ص8.

(2) المصدر نفسه، ص357.

(3) عنترة بن شداد، ديوانه، ص34.

(4) يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص22.

(5) المرجع نفسه، ص22.

وكذلك الشاعر الجاهلي "طرفة بن العبد" يصور غربته عن العشيرة التي نبذته وأفردته إفراد البعير المتعبد[1]- كما يقول-:

ومـــا زال تشـــرابي الخمـــور ولـــذتي وبيعـــي وإنفـــاقي طريفـــي ومتلـــدي

إلـــى أن تحـــامتني العشـــيرة كلهـــا وأفـــردت إفـــراد البعيـــر المعبـــد

رأيـــت بنـــي غبـــراء لا ينكروننـــي ولا أهـــل هـــذاك الطـــراف الممـــد

والإنسان حين يبعد عن دياره وأهله ويكون غريبا في غير بلاده يشعر بالهوان والذلة من جهة، حتّى وإن لم يتعرض لهما، ويشتاق إلى وطنه يحن إليه من جهة أخرى، ويتمنى العودة إليه، وهذا أحد الغرباء يشتاق إلى وطنه ويتمنى العودة إليه. [2]

ألا ليـــت شـــعري والحـــوادث جمـــة متـــى تجمـــع الأيـــام يومـــا لنـــا الشـــملا

وكـــل غريـــب ســـوف يمســـي بذلـــة إذا بـــان عـــن أوطانـــه وجفـــا الأهـــلا

والبكاء عن الأحبة والأوطان والحنين إليهم كثير وكثير في الشعر الجاهلي لا القول يكفي فيه، ولا القلم يقدر أن يحصيه وسأكتفي بهذا القدر وإن كان بالقليل لأفسح في ذلك المجال لكل من حن إلى وطنه في العصر الإسلامي وباقي العصور، فهناك ما جاء أيضا من أقوال وأشعار في هذا الخصوص.

2- الحنين إلى الأوطان في العصر الإسلامي:

كثر ذكر الوطن والحنين إلى الأوطان في التراث الإسلامي تماما مثلما كان الحال في العصر الجاهلي، وخير دليل ما أورده يحيى الجبوري في كتابه "الحنين والغربة في الشعر العربي- الحنين إلى الأوطان"- عن حب المسلمين عموما والرسول- صلى الله عليه وسلم- خصوصا لوطنهم مكة، وحنينهم إليه بسبب هجرتهم عنها هروبا من الظلم والاستبداد الناتج عن الكفار، وتلبية لأمره عز وجل وفي ذلك يقول:

---

[1] عفيف عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، حصاد القرن، دار جرير، عمان، ط1، 2007، ص38.

[2] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص135.

"وكان الرسول- صلى الله عليه وسلم- محبا لوطنه مكة، كثير الحنين إليها، وكان يكره خروجه من مكة مضطرا، يذكرها محبا، يقول في خروجه من مكة مهاجرا، والله إنك لخير أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت، وكان إذا قدم أحد من مكة إلى المدينة سأله رسول الله عن موطنه ومرتع صباه وكله شوق وحنين، وقد روي أن أبان قد قدم على رسول الله المدينة، فقال له: يا أبان كيف تركت مكة؟ قال تركتهم وقد حيدوا، وتركت الإدخر وقد أغدق، وتركت الثمام وقد خاض، فاغرورقت عينا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وكان شوق النبي- صلى الله عليه وسلم- وحنينه إلى مكة شديدا حتّى أنّه إذا حدث عنها يغلبه الشوق فيسأل المتحدث أن يكف، ففي رواية قدوم أصيل الغفاري من مكة وكان النبي- صلى الله عليه وسلم- يسأله: يا أصيل كيف عهدت مكة؟ قال والله عهدتها قد أخصب جنابها، وقد ابيضت بطحاؤها، وأغدق وأسلت ثمامها، وأمش سلمها، فقال النبي: حسبك يا أصيل، لا تحزنا...". [1]

والروايات كثيرة في حنين رسول الله وآله إلى الأوطان وإلى مكة على وجه الخصوص.

ونلمح أيضا اغتراب الشعراء في العصر الإسلامي وحنينهم إلى أوطانهم، حيث تصلنا أصداء الغزل العذري ومعاناة الشعراء من غربة الإبعاد والحرمان عن المحبوبة، من النفي والبعد عن الوطن، وقد صور "جميل بن معمر" ذلك أجمل تصوير في شعره خاصة في هذه الأبيات: [2]

هاجت فؤادك للحبيبة دار ... أقوت وغير أيها الأمطار
وعفا الربيع رسومها فكأنها ... لم يغن قبل فربعها ديار
لما وقف بها القنوص تبادرت ... مني الدموع وهاجني استعبار

[1] ينظر، يحيى الجبوري، والحنين والغربة في الشعر العربي، ص 12-13.
[2] فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص36.

وكان ابن مكتوم عمرو بن قيس (ت **23ه**) آخذا بزمام ناقة الرسول- صلى الله عليه وسلم- وهو يطوف ويتغنى بحب مكة إذ يقول: [1]

يـــا حبـــذا مكـــة مـــن وادي أرض بهـــا أهلـــي وعـــوادي

أرض بهـــات ترســـخ أوتـــادي أرض أمشـــي بهـــا بـــلا هـــادي

وهذا عروة بن حزام أحد شعراء صدر الإسلام (ت **30 ه**) يحن إلى العراق حيث الحبيبة، وتحن ناقته إلى اليمين وطنها، ويصور في مقابلة بين هواه وهوى ناقته ما يشعران من اللهفة والحنين إلى الوطن: [2]

هوى نـاقتي خلفـي وقدامي الهوى إنـــي وإياهـــا لمختلفـــان

هـــواي عراقـــي وتثنـــي زمامهـــا لبـــرق إذا لاح النجـــوم يمـــان

هـواي أمـامي لـيس خلفـي معـرج وشـوق قلوصـي فـي الغـدو يمـان

وبهذا صارت صورة الوطن والحنين إليه تتضح، فالحنين إلى الأوطان لم يعد وقفا على الديار الدارسة وبكاء على الأطلال، مثلما كان الحال في أكثر الشعر الجاهلي، وإنّما تطور الحنين وأصبح الشاعر يحن إلى وطنه في سعته وشموله وجمال أرضه، بداية من صدر الإسلام، فأصبح الشاعر يتغنى بطبيعة وطنه الخلابة.

3- الحنين إلى الأوطان في العصر الأموي:

على الرغم من تعقد الحياة في العصر الأموي، وظهور الدولة بطابعها الإسلامي، وسلطان الخلافة الوراثية، إلا أن عوامل الحنين والغربة بقيت فيه بل يمكن القول أنّها ازدادت، حيث ازداد النزوح عن الأوطان والرحيل طلبا للرزق، وهروبا من ظلم الولاة وقسوتهم بالإضافة إلى الحروب التي كثرت، إما بسبب الفتوحات الإسلامية أو الحروب الداخلية في الصراع على الخلافة، وظهور الأحزاب، وبسبب هذا وذاك كثر الشعر الّذي يذكر الغربة

---

[1] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص52.

[2] المرجع نفسه، ص53.

والإغتراب والحنين إلى الأهل والأوطان، وفي ذلك أمثلة كثيرة سأحاول إيراد بعضها فيما يلي:

"كانت الظروف الاقتصادية القاسية من أبرز الدوافع الملحة لاتخاذ الرحلة وسيلة لتبديد الشعور بالإغتراب الناتج عن القهر الاقتصادي في العصر الأموي فيطول بهم المقام ويزداد الشوق في النفس والقلب، وتظهر ألفاظ البكاء والحنين والاشتياق كبديل يحل محل العلاقة المفتقدة وتظهر في أشعارهم صيغ الإستفهام لتوحي بمدى الإلحاح في العودة إلى الأهل والوطن. [1]

متى راكب من أهل مصر وأهله بمكة من مصر العشية راجع

ويقول "ابن ميادة" بعد أن ظلت "حرة ليلى" موطنه يجذبه إليها جذبا، وظل الحنين لها يؤرق منامه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليله بحرة ليلي، حيث ربني أهلي

بلاد بها نيطت علي تمائمي وقطعن عني حين أدركني عقلي

وهل أسمعن الدهر، أصوات هجمة تطالع من هجل خصيب إلى هجل

تحن فأبكي كلّما ذر شارق وذاك على المشتاق قبل من قبل

فإن كنت عن تلك المواطن حابسي فأفش على الرزق واجمع إذن شملي

لقد كان الصراع دائرا بين عقله وهواه، وشوقه وحنينه، والحاجة تدعوه إلى الإقامة ومشاعره تحثه على الرحيل. [2]

"... وتعتبر الظروف الإجتماعية من أهم المؤثرات الأساسية في حياة الفرد- سلبا وإيجابا- فهي التي يمكن أن تحقق له التوافق الاجتماعي، وهي التي يمكن أن تنبذه وترفضه وتتخلى عنه، وقد عمل الإسلام على تحقيق الرفاهية الاقتصادية والتلاحم الاجتماعي بين

---

[1] ينظر، فاطمة حميد السويدي، الإغتراب في الشعر الأموي، ص8.

[2] ينظر، المرجع نفسه، ص8- 9.

أفراد المجتمع حين حقق بينهم مبدأ المساواة ورفض الطبقية بكل أشكالها في المجتمع الإسلامي، غير أن واقع الحياة في العصر الأموي عمل على اختلال الميزان الاقتصادي والاجتماعي بين طبقات المسلمين حين تناسى أسس الإسلام التي أرساها الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين، وأعادها جاهلية جديدة بتغذية الطبقية الاجتماعية، والعصبية القبلية فانفجرت ثورة علنية ضد الطبقات المترفة صاحبة الثراء، وحاول الشعراء مغالبة اغترابهم الاجتماعي بوسيلة إيجابية، اتخذت من الشعر مخرجا لها من حضيض الطبقية الدنيا حين شد الشعراء الرحال إلى أبواب السلطة من أجل تحقيق مكانة اجتماعية مرموقة".[1]

إلا أن قسوة الإغتراب تزداد حين تقترن الرحلة بالإذلال، والعربي بشكل عام ذو نفس أبية ترفض الضيم والمهانة، ولكن إحساسه بالعجز وانعدام القدرة على المواجهة وخاصة إذا كان الجانب الآخر هو الخليفة يؤدي إلى ظهور مشاعر الحسرة والندم والشعور بانعدام القوة، بمعنى انعدام قدرته على التأثير في المواقف الإجتماعية، وهذا ما جناه "الحارث بن خالد المخزومي" الذي كان له مكانته السامية في قبيلته وبين العرب جميعا، وما إن وفد على الخليفة "عبد الملك بن مروان" حتّى أظهر له الجفاء وتنكر له،[2] يقول الحارث:

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

وما بي وإن أقصيتني من ضراعة ولا افتقرت نفسي إلى من يضيمها

عطفت عليك النفس حتّى كأنّما بكفك بؤسي أو عليك نعيمها

---

[1] فاطمة حميد السويدي، الإغتراب في الشعر الأموي، ص10.

[2] المرجع نفسه، ص11.

لذلك كان رفضه لهذه الرحلة التي كانت اختيارية في بدايتها ثمّ تحولت إلى رحلة اغتراب قسري يشعر فيها بالانفصال عن هذا المجتمع الجديد، وهو دافع إلى زيادة بالانتماء والتعلق بمجتمعه القديم في مكة: [1]

من كان يسأل عنا أين منازلنا فالإقحوانة منا منزل قمن

ثمّ يقول في نفس القصيدة:

من كان ذا سكن بالشام يألفه فإنّ في غيره أمسي لي السكن

وإنّ ذا القصر حتّى ما به وطني لكن بمكة أمسى الأهل والوطن

وشعر الإغتراب في العصر الأموي كثير بكثرة العوامل والدوافع المؤدية له- التي سبق ذكر بعضها- ولهذا ارتأيت أن أقدم بعض النماذج في الحنين إلى الأوطان في هذا العصر حتّى لا يطول الحديث في هذا المقام.

سبق الذكر أن الفقر والحاجة من الأسباب التي دفعت بالشعراء إلى الرحيل حيث الأقاليم التي يتواجد فيها الرزق والأمان، وهذا "أبا دهبل الجمحي" **(ت 63 ه)** يرحل إلى الري فهو يذكر نزوحه وحنينه غربته إلى دياره، ويشرك الحمام في شوقه وحنينه: [2]

أفي كلّ عام غربة ونزوح أما للنوى من ونية فتريح

لقد طلع البين المشت ركائبي فهل أرين البين وهو طليح

وأرقني بالري نوح حمامة فنحت وذو البث الغريب ينوح

على أنّها ناحت ولم تذر دمعة ونحت وأسراب الدموع سفوح

وناحت فرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراضي مهامة فيح

أفق لا تنح من غير شيء فإنني بكيت زمانا والفؤاد صحيح

ولوعا وشطت غربة دار زينب فها أنا أبكي والفؤاد قريح

---

[1] فاطمة حميد السويدي، الإغتراب في الشعر الأموي، ص 12.

[2] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص54.

فملامح الغربة والحنين بادية في هذه الأبيات وواضحة كلّ الوضوح، إذ أن الشاعر يصرح بذلك من خلال عبارات البكاء والولع والغربة وما إلى ذلك.

كما تظهر رموز الغربة جلية وواضحة في قصيدة من قصائد "الشرعبي الطائي" إلا أن سبب اغترابه يختلف عن سبب اغتراب "أبا دهبل" فالحرب هي سبب حسرة "الشرعبي والطائي" وحنينه إلى وطنه[1] فيقول:

تـــذكرت هنـــدا فـــي بـــلاد غريبـــة ... فيـا لـك شـوقا، هـل لشـملك مجمـوع

تـــذكرتها والشـــاش بينـــي وبينهـــا ... وشـــعب عصـــام والمنايـــا تطلـــع

بـــلاد بهـــا خاقـــان جـــم زحوفـــه ... ونـــيلان فـــي ســـبعين ألفـــا مقنـــع

إذا دب خاقـــان وســـارت جنـــوده ... أتتنـــا المنايـــا عنـــد ذلـــك شـــرع

وهنـاك هنـد مـا لنـا النصـف مـنهم ... ومـا إن لنـا يـا هنـد فـي القـوم مطمـع

ألا رب خـــود خولـــة قـــد رأيتهـــا ... يسـوق بهـا جهـم مـن السـغد أصـمع

أحـــامي عليهـــا حـــين ولـــى خليلهـــا ... تنـــادي إليهـــا المســـلمين فتســـمع

تنـادي بـأعلى صـوتها صـف قومهـا ... ألا رجـــل مـــنكم يغـــار فيرجـــع

ألا رجـــل مـــنكم كـــريم يردنـــي ... يـرى المـوت فـي بعـض المـواطن ينفـع

وقائمة الشعراء المغتربين المتلهفين على العودة إلى أوطانهم ما تزال طويلة في هذا العصر، وهذا ما قدرت على توظيفه من بين النماذج الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، فما عساني أن أقول في حنين الشعراء في العصرين العباسي والحديث؟

4- الحنين إلى الأوطان في العصر العباسي:

شعر الحنين إلى الأوطان في العصر العباسي قل مقارنة بالعصرين الجاهلي والأموي، وذلك لاستقرار واتساع المدى

وانتشار الحضارة واختلاف الشعوب، ومع ذلك كانت هناك بعض الأصوات التي تنشد في الحنين "... فما دام حب الأوطان غريزة في النفوس والحنين إلى الأهل والبلاد

[1] فاطمة حميد السويدي، الإغتراب في الشعر الأموي، ص28.

طبيعة في الجبلة، فقد ظهر هذا الحنين والشوق عند الشعراء العباسيين، ولا شك أن بعضا من هذا الشعر كان تقليدا لأساليب الجاهليين والأمويين الّذين اعتادوا الهجرة والنقلة، وأقف عند جملة من هؤلاء الشعراء العباسيين الّذين حنوا إلى أوطانهم واشتاقوا إلى مراتع صباهم..."، [1] ومن هؤلاء الشعراء "يحي بن طالب الحنفي" **(ت 180ه)** الّذي ركبه الدين فهرب إلى الري، وصار يشتاق إلى كلّ ما في الوطن من أرض وماء وشجر، وبوطنه العزيز [2] تغنى:

ألا هل إلى شم الخزامي ونظرة إلى قرقرى الممات سبيل

فأشرب من ماء الحجيلاء شربة يداوي بها قبل الممات عليل

فيا أثلاث القاع من بطن توضح حنيني إلى إضلالكن طويل

كذلك "أبو الطيب المتنبي" من الشعراء العباسيين الّذين عانوا الغربة وها هو ذا في بلاد فارس يشكو من غربتين: غربة الوجه وغربة اللسان،[3] إذ يقول:

مغاني الشعب طيبا في المغاني في منزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

أما في غربته عن وطنه فيقول المتنبي إبان اعتقاله:

بيدي أيها الأمير الأريب لا لشيء إلا لأنني غريب[4]

ويقول في مطلع إحدى قصائده متذكرا مراتع صباه، وما تذكر الماضي إلا حنينا له:

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حمامي قبل يوم حمامي[5]

---

[1] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص103.

[2] ينظر، المرجع نفسه، ص105- 106.

[3] فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص37.

[4] ديوان المتنبي، تح: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر، بيروت، ط1، 2002، ج1، ص20.

[5] المصدر نفسه، ص22.

فقد كان المتنبي في غربته يشتاق إلى الأهل والوطن، ويأتي العيد وكل حبيب يضاحك حبيبه، أما هو فمن يضاحكه في غربته!!؟ وفي عينيه دموع الشوق والاغتراب، فقد كثر البعد وعز اللقاء: [1]

يضاحك في ذا العيد كلّ حبيبه حذائي وأبكي من أحب وأندب

أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب[2]

إلا أن الغريب في هذا الموضوع هو أنّني واجهت اختلافا في حنين المتنبي إلى وطنه، فالنماذج التي طرحتها تمثل صورة واضحة لحنينه إلى مراتع الصبا وإلى الأهل وبكائه لبعدهم ولشوقه للعودة من أجل لقائهم، إلا أنّني وجدت "عبد الرحمن البرقوقي" في تحقيقه لديوان المتنبي يقول بأن المتنبي لم يحن يوما إلى وطنه العراق الّذي سلخ فيه ثماني عشرة سنة من عمره قائلا: "... ويبدو أن وطنه ذلك قد نبابه، وضاق بآماله وأحلامه وطموحه"[3] إلا أن ما سبق ذكره أخذا عن مراجع أخرى يبين العكس.

وهذا شاعر عباسي آخر يحن إلى مسقط رأسه، وموطن صباه وإلى الأرض التي اخضر بها شاربه[4] فيقول:

إذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعي وأضحى فؤادي نهبة للهمائم

حنينا إلى أرض بها إخضر شاربي وحلت بها عني عقود التمائم

ويشكو "أشجع السلمي" **(ت 195هـ)** من عذاب الغربة وشدة الشوق والحنين فيقول مصورا ما يعانيه من هذا العذاب، فهو يسهر الليل باكيا متفكرا متألما لا يستقر به مضجع: [5]

---

[1] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص120.

[2] ديوان المتنبي، ج1، ص238.

[3] ينظر، المصدر نفسه، ص22.

[4] فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص38.

[5] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص107.

ومغتـــــرب ينقضـــــي ليلـــــه فنونـــــا ومقلتـــــه تـــــدمع

يؤرقـــــه نأيـــــه فـــــي الـــــبلا د فمـــــا يســـــتقر بـــــه مضـــــجع

إذا الليـــــل ألبســـــه ثوبـــــه تقلـــــب فيـــــه فتـــــى موجـــــع

ويغلب الشوق والحنين "علية بنت المهدي" **(ت 210هـ)** أخت هارون الرشيد، وقد صحبها أخوها إلى الري، فتشعر الغربة وتحن إلى بغداد، فلما صارت بالمرج صاغت شعرا قالت فيه:

ومغتــرب بــالمرج يبكــي لشــجوه وقد غاب عنه المسعدون على الحب

إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنشــق يستشــفي برائحــة الركــب

فلما سمع الرشيد الصوت علم أنّها قد اشتاقت إلى العراق وأهلها به فأمر بردها. [1]

ويحن شاعر آخر من الشعراء العباسيين إلى أرض الحجاز [2] فيقول:

أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي خيام بنجد دونها الطرق يقصر

أفــي كــلّ يــوم نظــرة ثــمّ عبــرة لعينيــك يجــري ماؤهــا يتحــدر

متى يستريح القلب، إذ ما مجاور حــزين، وإمــا نــازح يتــذكر

وغيرها من الأمثلة العديدة التي تعبر عن هذا الشوق العام إلى الوطن والأهل والمنازل.

5- الحنين إلى الأوطان في العصر الحديث:

عندما ألقت محبة الأوطان رحلها في العصر الحديث تلقفها الشعراء من بينهم "أحمد شوقي" في بيته الوضيء:

وطنـــي شـــغلت بالخلـــد عنـــه نـازعتني إليـه فـي الخلـد نفسـي[3]

---

[1] يحيى الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص108.

[2] فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص15

[3] فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، دار اليازوري الغلمية، الأردن، دط، 2006، ص81.

فأهم ما ميز الشاعر في العصر الحديث أنّه رهف الحس وشبوب المشاعر، بل لم يكن عادة بالمرح ولا بالمتفائل، وإنّما كان فريسة ألم مرير بسبب الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبل الإحسان،[1] وقد يعود كذلك سبب هذا الألم المرير إلى الحنين والشوق للأوطان، فأكثر الشعراء في هذا العصر هاجروا من أوطانهم واتخذوا من غيرها وطنا، ولعلّ أبرز من تبنى مثل هذا الشعور وعبر عنه بصدق الإحساس هم شعراء المهجر الأمريكي بشقيه الشمالي والجنوبي.

"... لقد أضرم الاغتراب حنين المهجريين فجعلوا يحنون إلى الشرق... وفي هذا الحنين أنتج لنا المهجريون شعرا رائعا عبقريا، سيبقى زغرودة في فم الأيام، لما ينصح به من حنين مشبوب، ووجد صادق، وما يزخر به من عاطفة محتدمة، وخيال ساحر، وأبرز ما نجد ذلك عند شعراء المهجر الجنوبي، وعلى الأخص عند "أبي الفضل الوليد"، وعند الشاعر القروي، وسليم الخوري، وإلياس فرحات، فهم في المهاجر الأمريكية زعماء شعراء الحنين، فقد اكتوى الجميع بالغربة المحرقة، واحسوا بلواهج الحنين الملتهبة، ففاضت قرائحهم بشعر هو السحر الحلال في التغني بجمال موطنهم الشرقي..". [2]

وسأحاول إيراد بعض النماذج على ما سبق قوله، فهذا "نسيب عريضة" على سبيل المثال يعبر عن تعذيب نفسه له بالحنين: [3]

يا نفس مالك والأنين

تتألمين وتؤلمين

عذبت قلبي بالحنين

وكتمته ما تقصدين

---

[1] محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط ، د ت، ص50.

[2] ينظر، عيسى الناعوري، أدب المهجر، دار المعارف، مصر، ط3، 1977،ص 80- 81.

[3] ينظر، إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة، بيروت، د.ط ، د.ت، ص217- 218.

وهذا "ندرة حداد" دفعه البعد عن وطنه، والفراق عن أهليه إلى حرارة الشوق لوطنه[1] يقول:

أيهـــا الآتـــي مـــن الأوطـــان والأوطـــــــان حلـــــــوة
لـــم أجـــد عنهـــا وإن طـــال زمـــــان البعـــــد ســـــلوه
وطنـــي أصـــبح منـــذ فارقتـــه فـــــي القلـــــب جـــــذوه

ويقول حليم دسوس في الغربة والاغتراب[2]:

هجـــر الـــروض وعـــاف الثمـــر وليـــــالي أنســـــه المزهـــــرة
كـــان فـــي موطنـــه معرفـــة وهـــو فـــي الغربـــة أمســـى نكـــرة
ومضـــى يضـــرب فـــي آفاقهـــا ولســـان الـــدهر يـــروي خبـــره
بحيـــاتي هـــاجر مغتـــرب غالـــب الـــدهر ولاقـــى عبـــره
وهـــو فـــي الفجـــر ينـــاجي شمســـه وهـــو فـــي الليـــل ينـــاجي قمـــره
أدر الدفـــــة يـــــا ربانهـــــا فـــالحمى حـــن إلـــى مـــن هـــاجره

"لقد شكل الحنين المظهر الأوّل للإحساس بالغربة عند هؤلاء الشعراء المهجريين، فرغم تركهم لأوطانهم مستعمرة فقيرة تتخبط في جهلها وفوضاها لكنهم أحبوها بكل سماتها وخصائصها بعد ما سئموا العيش اللاحق وراء المدينة الزائفة، والتقدم المبرقع فنجد فوزي المعلوف مثلا في رائعته "على بساط الريح" يفضل عالم الطيور والنجوم على عالم النّاس الأمريكي الّذي يعيش فيه...". [3]

---

[1] علي علي مصطفى صبح، من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ط1، 1981، ص53.

[2] محمد عبد المنعم خفاجي، حركات التجديد في الشعر الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 1990، ص190-191.

[3] ينظر، فايز ترحيني، الدراما ومذاهب الأدب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص188.

وهذا "جبران خليل جبران" عميد الرابطة القلمية في المهجر الشمالي يشارك فوزي المعلوف في نفس الفكرة بقوله: "لبنانكم صراع بين رجل جاء من المغرب ورجل جاء من الجنوب، أما لبناني فصلاة مجنحة ترفرف صباحا عندما يقود الرعاة قطعانهم إلى المروج...". [1]

وهذا نسيب عريضة مرة أخرى يعبر عن شوقه إلى وطنه: [2]

أحس شوقا إلى ديار رأيت فيها جمال سلمى

شربت منها لمن عقار من كف ساقي في الشراب ألم

ويقول كذلك:

هل من سبيل إلى رجوع هل من طريق إلى الوصول

تهيم نفسي ولست أدري بحاصل ومستحيل

وقد أبرز لنا "ميخائيل نعيمة" صور بارعة مؤثرة من حنين جبران في كتابه عنه، فقد ذكر أنّه بينما كان جبران مرة يرسم صورة لنعيمة، كان يحدثه عن حنينه فيقول: "ميشا، ميشا!! محاني الله وإياك من المدينة والمتمدنين، ومن أمريكا والأمريكيين، ونحن سننجو بإذن الله، وسنعود إلى قمم لبنان الطاهرة، وأوديته الهادئة، وسنأكل من عنبه وبقوله، ونشرب من خمرته وزيته، وسننام على بيادره، ونسرح مع قطعانه، ونسهر على شبابات رعاته، وخرير غدرانه...، إنّ نفسي تطالبني بعزتها، وفكري يطالبني بحريته، وجسمي يطالبني براحته، ولن أستعيد حرية فكري وراحة جسمي إلا في لبنان...".[3]

---

[1] فؤاد القرقوري، أهم مظاهر الرومانطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيه، الدار العربية للكتاب، طرابلس، د ط، جوان 1968، ص169.

[2] س. موريه، الشعر العربي الحديث 1700- 1980 (تطوره وأشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي)، تر: سعد مصلوح وشفيق السيد، دار غريب، لبنان، د ط، 2003، ص158.

[3] ينظر، عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص82- 83.

ورشيد أيوب مهجري آخر يقول في قصيدة من قصائده بعنوان "الجندي والغدير" معبرا هو الآخر عن شوقه لوطنه:

يـــا غـــديرا جاريـــا بـــين الحقـــول فـــي ســـكون الليـــل مـــا هـــذا؟

قـل بـرب الخلـق هـل أنـت رسـول رنـــة الأفـــلاك فـــي أوج الأثيـــر؟

أم فـؤاد الصـب مـن بـين الضـلوع يبعـــث الشـــوق أنينـــا وزفيـــر؟

هذه الأوصاف التي خلعها الشاعر على الغدير نابعة من نفسيته التي تشعر بوحشة الإغتراب والحنين إلى الأوطان، إنّه يسائل الغدير بعدما تخيل خريره أنينا وزفيرا فيقول في نفس القصيدة: [1]

هل تقاسي وحدة الليل البهيم

وبنات النعش فيه مؤنسات

مثل صب كلّما هب النسيم

أم كمشتاق إلى دار النعيم

بعد ما قد مل من هذه الحياة

كذلك ورد موضوع الحنين إلى الأوطان في صحف ومجلات عديدة، فهو موضوع واسع شغل معظم الباحثين، فجاء في جريدة "العرب الثقافي"- مثلا- مقالا يتحدث عن شعراء المهجر الأمريكي فأخذت منه هذا الجزء كمثال: "... فقد تركوا أوطانهم في فترة مبكرة من حياتهم، مرة بسبب الظلم الاجتماعي والسياسي والديني، ومرة بسبب شظف العيش، والحث عن حياة أفضل كما هو الحال في الأبيات التالية التي قالها أحد الشعراء المهاجرين:

لا الرزق في تربة الأوطان يغنينا

ولا توطن أرض الغير يغنينا

[1] ينظر، صابر عبد الدايم، أدب المهجر، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1993، ص194- 195.

في أربع الأهل بؤس العيش يؤلمنا

وفي المهاجر نار الوجد تكوينا

لو أن لبنان فيه العيش منبسط

لو ابتعدنا نزوحا عن أراضينا

ما في البلاد المشاريع معززة

تحيي البلاد بإنتاج وتحييننا

دار التغرب من بؤس ومن عوز

في موطن الأرز قد أعيا المداوينا"[1]

وجاءت في مجلة "الكاليوت" مقالا آخر تحدث عن معاناة شعراء المهجر الأمريكي، وتعرضهم لقسوة ذاك المجتمع وعسرته في تعصبه عليهم، واحتقارهم، وذلك بنعتهم بأوصاف تحقيرية تقلل من شأنهم، ومن أشدها ثقلا على نفوسهم أن ينعتوهم باسم (توركو) أي الأتراك، وهم من هرب بسبب ظلم الأتراك الاستبدادي، وهذا ما جعلهم يمدون جسور الألفة مع كلّ الأشياء حتّى الجمادات ويتخذونها كرموز يعبرون بها عن شوقهم وحنينهم لأوطانهم، وعن ألمهم لبعدهم عنها،[2] كما سبق الإشارة في قصيدة رشيد أيوب "الجندي والغدير".

وهذا الشاعر القروي من أكثر الشعراء المهجريين أيضا حنينا، وأعمقهم به شعورا، لا يرى في البرازيل شيئا إلا ويلوح له فيه خيال وطنه: [3]

أروم إلـــى ربـــى لبنـــان عـــودا فيمنعنـــي عـــن العـــود افتقـــار

ولـــو خيـــرت لـــم أهجـــر بـــلادي ولكـــن لـــيس فـــي العـــيش اختيـــار

---

[1] حسونة المصباحي، شعراء المهجر وتجديد الشعر العربي، مجلة العرب الثقافي، د، عدد الخميس 2009/05/21، ص9.

[2] ينظر، محمد نجم الحق الندوي، تصوير الأقصوصة الطريفة في الشعر المهجري، مجلة كاليكوت، جامعة كالبكوت، كيلارا، العدد 4، مارس 2012، ج2، ص11- 12.

[3] ينظر، عيسى الناعوري، أدب المهجر، ص81،82.

وعندما كان يخطط للعودة إلى وطنه كان يردد مرارا وتكرارا بيته الشعري هذا: [1]

أخـت العروبـة هيئـي كفنـي أنـا عائـد لأمـوت فـي وطنـي

وخلاصة ما يمكن قوله أن كلّ أشعار هؤلاء المهاجرين تدل على أنّهم لم ينسوا وطنهم يوما، وهل يستطيع أحد أن ينسى وطنه وقد ترك فيه أباه وأمه وإخوته وأجبته، وترك ملاعب صباه وآماله وأحلامه؟.[2]

وعلى هذا فإنّ محبة الأوطان ظاهرة كونية عامة، تستدعيها العاطفة والعقل معا، تتمثل العاطفة بارتباط الإنسان بجذوره وتاريخه، وتوقه الدائم للماضي بكل ما فيه من جمال، ويختزنه من ذكريات وأحلام، أما على مستوى العقل فهو وفاء تستلزمه الأخلاق النبيلة، والمبادئ السامية لأنّه شعور يربط الفرد بالجماعة، ويجعله يدور في فلكها، ويخلص لها، وكلما ابتعد الإنسان عن موطنه وأهله، اتخذ حنينه اتجاها حادا ومؤرقا وقاسيا، لذلك فمن غير المستغرب أن نجد الشعر العربي- والعالمي أيضا- عبر كلّ الأزمنة والعصور يزخر بهذه العاطفة الإنسانية النبيلة معبرا عنها واصفا إياها تخفيفا للآلام، وتعويضا يعيد إلى النفس توازنها الداخلي وقدرتها على التكيف ومواجهة الحياة.[3]

فكل إنسان مهاجر- شاعرا كان أم لا- نجده بطبيعة الحال يحن إلى وطنه، ويعبر عن ذلك بطريقته الخاصة، إذا كان رساما فبالرسم، وإذا كان شاعرا فبالشعر، وهناك من يعبر عن حنينه بالتأمل في الطبيعة الخلابة، وآخرون بالبكاء وذرف الدموع أو بالسهر في الليالي الحالكة متأملين النجوم والأقمار وكل هذا، يولد رقة وشعورا صادقين خاصة إذا ما كان لسان هذا الشوق والحنين هو الشعر المستفيض من القلب، فنرى كلّ شاعر يشف عن شعور بوحشة الغريب المفارق، وعن توق عميق إلى الوطن القديم- إذا صح التعبير-

---

[1] محمد عبد المنعم خفاجي، دراسات في الأدب الحديث ومدارسه، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ج1، ص371.

[2] شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص257.

[3] فضل سالم العيسى، النزعة الإنسانية في شعر الرابطة القلمية، ص81.

ومن أبرز الشعراء المهجريين الّذين عانوا مرارة الغربة وحرقة الاشتياق للوطن أيضا إيليا أبو ماضي، وقد خصصت فصلا كاملا للحديث عن وطنه بصفته جوهر هذا البحث، لكن قبل ذلك وجب التعريف بهذا الشاعر وعن سبب وسمه بالشاعر المهجري الأكبر، فمن يكون إيليا أبو ماضي؟

هاجر إيليا أبو ماضي وطنه (لبنان) وهو طفل لم يتجاوز الثانية أو الثالثة عشرة من عمره- كما سبق الذكر- وقضى ما تبقى من حياته مهاجرا من بلد لآخر، ورغم السنين الطوال التي قضاها بعيدا عن وطنه لم ينسه الزمن "لبنان" فقد تغنى به في دواوينه الخمسة، "ولطالما كان لبنان في نظره قطعة من سماء، أو قسما من فردوس، أحبه حتّى العظم، وتغنى بسحره وجماله وروعته، وقد زادته عودته إلى الوطن- ذات مرة- محبة وهياما بجماله، وفناء بطبيعته التي اختصها الله بالفتنة والجمال شأنه في ذلك شأن كلّ أديب مهجري، وكان يذوب رقة وحنانا، ويتحرق شوقا للقاء الوطن الحبيب البعيد"،[1] وقد اخترت نماذج من بعض ما قاله عن وطنه إذ كتب الكثير عنه، وركزت على ديوانيه الأخيرين اللذين نظم قصائدها بعد عودته من زيارته لوطنه رجوعا إلى بلاد الغربة.

وقد زخر هذين الديوانين بالعديد من القصائد التي تشير إلى شوقه لوطنه وتمنيه العودة إليه، بعد هجرة دامت طويلا، كما اخترت بعض النماذج من دواوينه الأخرى.

أوّلا: الحنين إلى الوطن في نماذج من ديوان "الخمائل"

كان لبنان في نظر أبي ماضي خريدة نفيسة من خرائد الزمان، ودرة غالية من درر الكون، فلا شمس يشبه شمسه، ولا ماء أعذب من مائه، ولا جبال أشمخ من جباله، ولا سهول أمرع من سهوله، ولا طبيعة أجمل من طبيعته في صفائه وجماله. [2]

ويترنم أبو ماضي بجمال لبنان فيسكب على قصائده صورا حية نفي أسلوب بديع رقيق فما هو ذا؟

في قصيدة له بعنوان "**لبنان**" يقول:

---

[1] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي، شاعر السؤال والجمال، ص69.

[2] المرجع نفسه، ص69.

اثنان أعيا الدهر أن يبليهما "لبنان" والأمل الّذي لذويه
نشتاقه والصيف فوق هضابه ونحبه والثلج في واديه
وإذا تمد له ذكاء حبالها بقلائد العقيان تستغويه
وإذا تنقطه السماء عشية بالأنجم الزهراء تسترضيه
وإذا الصبايا في الحقول كزهرها يضحكن ضحكا لا تكلف فيه
هن اللواتي قد خلقن لي الهوى وسقينني السحر الّذي أسقيه
هذا الّذي صان الشباب من البلى وأبى على الأيام أن تطويه[1]

ويعتبر أبو ماضي أن "**لبنان**" وطن مميز فريد ليس له ند أو شبيه[2] فيقول:

ولربما جبل أشبهه به مسترسلا مع روعة التشبيه
فأقول: يحكيه، واعلم أنّه مهما سما، هيهات أن يحكيه[3]

كما يعد شاعرنا في هذه القصيدة أن لبنان هو مركز الدنيا جمعاء، وهيكل الجمال، كما يرى أن الشعر بنى عرشه في لبنان، وما كلّ هذه إلا حبا تفي لبنان وتغزلا فيه فيقول:

وطني ستبقى الأرض عندي كلها حتّى أعود إليه أرض التيه
سألوا الجمال: فقال هذا هيكلي والشعر قال: بنيت عرشي فيه[4]

ولبنان أبو ماضي يختلف عن لبنان غيره، فلبنانه هو انفتاح على الحضارة وتفاعل إنساني، ولبنانه هو الوحدة المشتركة التي تصهر جميع أبنائه في بوتقة واحدة، أما لبنان غيره فهو لبنان السياسة الزائفة والطائفية البغيضة التي لا تجر إلا الوبال والمصائب، ولا تأتي إلا بالويل[5] فلنسمعه يقول:

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص150.

(2) خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص70.

(3) إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص151.

(4) المصدر نفسه، ص151.

(5) خليل برهومي، شاعر السؤال والجمال، ص71.

غيـــري يـــراه سياســـة وطوائفـــا ويظـــل يـــزعم أنّـــه رائيـــه
ويـــروح مـــن إشـــفاقه يبكـــي لـــه لبنـــان أنـــت أحـــق أن تبكيـــه
لا يســـفر الحـــزن النزيـــه لنـــاظر مـــا دام منـــه الطـــرف غيـــر نزيـــه
قـــل للألـــى رفعـــوا التخـــوم لأرضـــه ضـــيقتم الـــدنيا علـــى أهليـــه
ولمـــن يقولـــون الفـــرنج حماتـــه "الله قبـــل ســـيوفهم حاميـــه"[1]

فأبو ماضي يفصح عن محبته المطلقة لوطنه "لبنان" ويضعه فوق كلّ الديار والأوطان، ويراه هيكل الجمال وعرش الشعر والنعيم الأبدي الخالد. [2]

وفي قصيدة "**الشاعر في السماء**" يعبر شاعرنا عن وطنه بصورة مثالية، إذ يصور فيها ما فعل الحنين به فيقص علينا في الأبيات الأولى منها كيف أن العناية الإلهية رفعته من هوة الشقاء إلى قبة السماء، وشادت له قصرا فوق السماك، ومدت ملكه على الفضاء، فصار في طاعته الضياء والريح يصرفها كيف ما يشاء[3] فيقول:

رآنـــــــي الله ذات يـــــــوم فـــي الأرض أبكـــي مـــن الشـــقاء
فـــــــرق والله ذو حنـــــــان علـــى ذوي الضـــر والعنـــاء
وقـــــال: لـــــيس التـــــراب دارا للشـــعر، فـــارجع إلـــى الســـماء!
وشـــاد فـــوق الســـماك بيتـــي ومـــد ملكـــي علـــى الفضـــاء
فالتفـــت الشـــهب حـــول عرشـــي وســـار فـــي طـــاعتي الضـــياء
وصـــرت لا ينطـــوي صـــباح إلا بـــأمري ولا مســـاء
ولا تســـوق الغيـــوم ريـــح إلا ولـــي فوقهـــا لـــواء
فـــالأمر فـــوق النجـــوم أمـــري لـــي الحكـــم فيهـــا ولـــي القضـــاء[4]

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص153.

[2] شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص262.

[3] المرجع نفسه، ص263.

[4] إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص129.

ورغم كلّ هذا إلا أن شاعرنا لم يزل حزينا مكتئب الروح، فيسترسل في قصته يخبرنا كيف استل منه ربه شوقه إلى الخمر والنساء، ولكنه ظل في الحزن والبلاء، فيقول:

لكنـــي لـــم أزل حزينـــا مكتئـــب الـــروح فـــي العـــلاء
فاســـتغرب الله كيـــف أشـــقى فـــي عـــالم الـــوحي والســـناء
وقـــال: مـــازال آدميـــا يصـــبو إلـــى الغيـــد والطـــلاء
ومـــس روحـــي واســـتل منهـــا شـــوقي إلـــى الخمـــر والنســـاء
وظـــن أنـــي انتهـــى بلائـــي فلـــم يزدنـــي ســـوء بـــلاء
واشـــتد نـــوحي وصـــار جهـــرا وكـــان مـــن قبـــل فـــي الخفـــاء
وصـــار دمعـــي ســـيول نـــار وكـــان قـــبلا ســـيول مـــاء[1]

فسأله ربه عما ينقصه: هل يشتهي أن يكون طيرا، أو نجما، أو يشتهي شيئا آخر من زينة الحياة الدنيا؟ لكن شاعرنا الحزين يرفض كلّ ذلك ويطلب أمنية غريبة، كان يسترها في نفسه الخوف والحياء، إذ يقول:

هـــل تشـــتهي أن تكـــون طيـــرا؟ قلـــت: كـــلا، ولا غنـــاء!
هـــل تشـــتهي أن تكـــون نجمـــا؟ أجبـــت: كـــلا، ولا بهـــاء!
هـــل تبتغـــي المـــال؟ قلـــت كـــلا مـــا كـــان مطلبـــي الثـــراء
ولا قصـــورا، ولا رياضـــا ولا جنـــودا ولا إمـــاء
ولـــيس مـــا بـــي يـــا رب، داء ولا احتيـــاجي إلـــى دواء
ولا حنـــين إلـــى القنـــاني ولا اشـــتياقي الظبـــاء
ولكـــن أمينـــة بنفســـي يســـترها الخـــوف والحيـــاء! [2]

---

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل ، ص130- 131.

[2] المصدر نفسه، ص132.

وراح أبو ماضي يفصح عما يريده بين سطور هذه القصيدة الجميلة، ويكشف عن سبب حزنه شاكيا غربته في بلاد المهجر، راجيا من الله عز وجل أن يحقق له أمنيته التي لم تكن- مطلقا في مصاف كلّ المغريات التي قدمت له على طبق من ذهب كونه شاعرا فيقول:

فقال: يا شاعرا عجيبا قل لي إذن ما تشاء؟
فقلت: يا رب، فصل صيف في أرض لبنان أو شتاء
فإنني ههنا غريب وليس في غربة هناء[1]

فسأله الله عز وجل عن أي شيء يشتاق في لبنان، وما لبنان إلا أرض ككل أرض، وناسه والورى سواء! ولبنان فيه البؤس والنعيم، وفيه الفاسدين والأتقياء، فيرد أبو ماضي بأن حنينه لوطنه ومسقط رأسه لم يكن حنينا للنعيم الّذي به فحسب، بل يشتاقه بكل ما يسر أو يسيء، وفي ذلك يسرد أبو ماضي قائلا:

فاستضحك الله من كلامي وقال هذا هو الغباء
لبنان أرض ككل أرض وناسه والورى سواء
وفيه بؤسي وفيه نعمي وأرديا ء وأتقياء
فأي شيء تشتاق فيه؟ فقلت ما سرني وساء[2]

وراح يذكر ما حنته نفسه إليه في وطنه البعيد فيقول:

تحن نفسي إلى السواقي إلى الأقاحي إلى الشذا
إلى الروابي تعرى وتعكسى إلى العصافير والغناء
إلى العناقيد والدوالي والماء والنور، والهواء! [3]

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص132.

(2) المصدر نفسه، ص132.

(3) المصدر نفسه، ص133.

ويشرف الله من علاه، في هذه القصيدة، ليشهد "لبنان" في السماء، فيصور لنا أبو ماضي كيف باركه الله على صحة عقله، وعلى وفائه لبلده قائلا:

فأشـــرف الله مـــن عـــلاه يشـــهد "لبنـــان" فـــي المســـاء

فقـــال: مـــا أنـــت ذو جنـــون وإنّمـــا أنـــت ذو وفـــاء

فـــإنّ لبنـــان لـــيس طـــودا ولا بـــلاء، لكـــن ســـماء! [1]

ويشتاق أبو ماضي إلى وطنه يوما بعد يوم، حتّى أضحى ذاك الوطن الحبيب يراوده حتّى في مناماته، فهاهو ذا يهلوس بلبنان في قصيدة أخرى بعنوان "شبح"، هذا الشبح الّذي يصوره بصورة والده، إذ رأى في منامه خيالا يلوح له متلفقا بعباءة، وسرعان ما عرف هذا الخيال بنفسه، إذ به ما هو إلا "لبنان" الحزين الّذي هجره، فيقول:

بـــأبي خيـــال لاح لـــي متلففـــا بعبـــاءة مـــن عهـــد فخـــر الـــدين

يمشـي علـى مهـل ويرسـل طرفـه فـي حيـرة المسـتوحش المخـزون

مـن أنـت يـا شـبحا كئيبـا صـامتا؟ قـل لـي فإنـك قـد أثـرت شـجوني

أخيـــال خصـــم أتقـــي نزواتـــه؟ أم أنـت، يـا هـذا، خيـال خـدين؟

فأجـــابني مترفقـــا متحببـــا فسمعت صوت أب أبـر حنـون[2]

وراح الشبح الحزين يشكو لشاعرنا حزنه متسائلا في حيرة من أمره عما فعله به أبناؤه وهو أبو الطبيعة الخلابة الغناء، وصاحب المجد والمحاسن جمعاء، وما هذه المحاسن التي يذكرها أبو ماضي إلا رمز لشوق وحنين يسلب كيانه ويذكره بمناظر لبنانه الخلابة، فيقول:

يـــا شـــاعرا قـــل للألـــي هجرونـــي أنـــا مـــا نســـيتكم فـــلا تنســـوني

مـــا بـــالكم طـــولتم حبـــل النـــوى يـــا ليـــت هـــذا الحبـــل غيـــر متـــين

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص134.

[2] المصدر نفسه، ص193.

قد طفتم الدنيا فهل شاهدتم ... جبلا عليه مهابتي وسكوني؟
أوردتم كمناهلي؟ أنشقتم كأزا ... هري في الحسن والتلوين؟
ولقد تظللتم بأشجار فهل ... رفرت غصون فوقكم كغصوني؟
وسمعتم شتى الطيور صودحا ... أسمعتم أشجى من الحسون؟
هل أنبتت كالأرز غيري بقعة ... في مجده وجلاله الميمون؟
أرأيتم ما رأيتم فتنة ... كالبدر حين يطل من صنين؟
مرت قرون وانطوت وكأنني ... لمحاسني كونت منذ سنين
أبليتها وبقيت، إلا أنني ... للشوق كاد غيابكم يبليني[1]

إلا أن شاعرنا يجيب وطنه الحبيب، والشوق والحنين يقتلانه، مهونا عليه بكلماته العذبة الرخيمة، ومبررا له سبب هجرتهم له، فما هجروه إلا نشادا للحرية، وفرارا من الظلم والجور والطغيان السياسي،[2] فيقول:

لبنان لا تعذل بنيك إذا هم ... ركبوا إلى العلياء كلّ سفين
لم يهجروك ملالة لكنهم ... خلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون
ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا ... أم الثقافة أم التمدين
لما ولدتهم نسورا حلقوا ... لا يقنعون من العلى بالدون
والنسر لا يرضى الشجون وإن تكن ... ذهبا، فكيف محابس من طين؟
الأرض للحشرات تزحف فوقها ... والجو للبازي وللشاهدين[3]

وما تزال القصيدة متواصلة مليئة بعبارات الحنين والشوق المتطايرة بين لبنان وابنه – أبو ماضي– وأروع ما يختم به شاعرنا هذه القصيدة، أبيات يناشد فيها أمثاله من أبناء وطنه المهاجرين، الّذين يشاركهم في الحنين إلى بلدهم، ويتمنى لو أنّه يملك جزء من ذاك البلد ويسمح في الدنيا وما فيها لغيره، فكلها لا تساوي ربى لبنان:

---

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص194– 195.

[2] محمد أحمد ربيع، في تاريخ الأدب العربي الحديث، ص48.

[3] إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص195.

لبنـــان فـــيكم ماثـــل إن كنـــتم ... فـي مصر أو فـي الهند أو فـي الصين
إن بنـــتم عنـــه فمـــازال الهـــوى ... يـــدنيكم منـــه كمـــا يـــدنيني
وحـــراككم لعلائـــه وســـكونكم ... وإلـــى ثـــراه حنيـــنكم وحنينـــي
لـــو أمســـت الـــدنيا لغيـــري كلهـــا ... وربـــاه لـــي مـــا كنـــت بـــالمغبون
أنـــا فـــي حمـــاكم طـــائر متـــرنم ... بـــين الأقـــاح الغـــض والنســـرين
أنـــتم بنـــو وطنـــي وأنـــتم إخـــوتي ... وأنـــا امـــرؤ ديـــن المحبـــة دينـــي[1]

ورغم بعد أبو ماضي عن وطنه وتقديمه له الأعذار التي دفعته- هو وغيره من أبناء وطنه- إلى الهجرة إلا أنّه يفضل وطنه الأوّل "لبنان" عن بلاد الغربة حتّى في أبسط الأمور، فنجده في قصيدة جديدة بعنوان "**كمنجة الشوا**" يتحدى نيويورك ذات البروج الشامخة بأوتار كنار الشام، فدرجة عشقه لبلده واشتياقه له جعلته لا يأبه بالتقدم الّذي بلغته بلاد الغرب، ويؤكد لهذه البلاد بأنّها لو أصغت لصوت عذب رخيم من أصوات طيور بلاده ولو لبرهة وجيزة من الزمن فإنّها حتما ستحتقر كلّ أنواع الكلام، وستعترف بدوام قصور المنى بدلا من قصور الحجارة الخالية من الأحاسيس العذبة الرقيقة فيقول:

نيويـورك! يـا ذات البـروج التـي ... سـمت وطالـت كـي تمشـي الغمـام
لـــن تبلغـــي والله بـــاب الســـما ... إلا بأوتـــــار كنـــــار الشـــــام
فأصـــغي إلـــى ألحانـــه لحظـــة ... تحتقـــري كـــلّ صـــنوف الكـــلام
وتـــــدركي أن قصـــــور المنـــــى ... تبقـــى وتنهـــد قصـــور الرخـــام[2]

وينشد أبو ماضي قصيدة أخرى وهي من أروع ما جادت به نفسه في هذا الديوان، ويسميها بـ"**ذكرى**" وما هي إلى تصويرا للذكريات التي تحرك أشواقه الدفينة في ذاته وتهز مشاعره وكيانه،كلها ذكريات لوطنه أين مراتع صباه التي لطالما أحبها بجميع صورها التي تجول في خاطره ويحب رؤياها، فصور يحبها نورا جميلا صافيا، وأخرى يحبها سحرا يرف مع الندى، ويحبها ذكرى تطيف بداخله، وأخرى تذكره بمجالس الحب في طل الصبا.

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص197.

[2] ينظر، المصدر نفسه، ص190- 191.

وتهتف الطير بها في الربى فما لنا نحن نعميها؟
لله في الغابة أيامنا ما عابها إلا تلاشيها[1]

ولكم يشتاق إيليا أبو ماضي- بمجرد رؤيته لتلك الصور- إلى منازل وطنه التي لم تترك مخيلته فارغة على الإطلاق، والتي كانت تجعله دوما في خيال واسع يسكنه لبنان، رغم بعدها السحيق عنه، وبالخصوص في فصل الربيع أين يصغي إلى كلّ ما تشدو به طبيعة بلاده الخلابة من حوله، فيقول:

إني امرؤ لا شيء يطرب روحه ويهزها كالزهر والألحان
اللحن من قمرية أو منشد والزهر في حقل وفي بستان
هذا يحرك بي دفين صبابتي ويهز ذاك مشاعري وكياني
ويهوى الملاحة ناظري صورا لا ترى وأحبها في مسمعي أغاني
وأحبها نورا جميلا صافيا متألقا في النفس والوجدان
وأحبها سحرا يرف مع الندى ويموج في الألوان كالألوان
وأحبها ذكرى تطيف بخاطري لأخ هويت، وغادة تهواني
أو مجلسا للحب في ظل الصبا إنّ الحياة جميعها هذان
أو في خيال منازل أشتاقها كم من جمال في خيال مكان
ولقد نظرت إليكم فكأنما أنا في الربيع وفي ربى لبنان
وإلى السواقي وهي تنشد للصبا والحب، في الفتيات والفتيان[1]

وما تزال القصيدة الطويلة تعبر عن الطبيعة الساحرة التي يحلم أبو ماضي أن يكون بين أحضانها في موطنه "لبنان"، فشاعرنا متيم بالطبيعة كونه شاعر رومانسي حالم، وكونه نما وترعرع في قرية ساحرة الجمال، أساسها الطبيعة، ولذلك نجده قد تغنى في الكثير من شعره بالطبيعة والغاب.

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص124- 125.

وإذا ما رجعنا إلى قصائد الغاب كلها عند أبو ماضي أو عند شعراء المهجر- بصفة عامة- نجدها ليست إلا رمز حب دافق للوطن المفقود الّذي خفي عن أنظارهم، ولا يزال يدوي في قلوبهم صياح النشوة به، وكأنه سهام تنفذ إليهم من حفاف السماء، وفي غمرة هذه النشوة ينشدون تلك الألحان العذبة، التي يتغنون فيها بالغاب، وربما كانت قصيدة "**الغابة المفقودة**" لشاعرنا-أبو ماضي- أوضح دليل على ذلك، وهي تجري على هذا النمط: [2]

يـــا لهفـــة الـــنفس علـــى غابـــة ... كنـــت وهنـــد نلتقـــي فيهـــا
أنـــا لمـــا شـــاء الهـــوى والصـــبا ... وهـــي كمـــا شـــاءت أمانيهـــا
تكـــاد مـــن لطيـــف معانيهـــا ... يشـــربها خـــاطر رائيهـــا
آمنـــت بـــالله وآياتـــه ... ألـــيس أن الله باريهـــا؟
نباغـــت الأزهـــار عنـــد الضـــحى ... متكئـــات فـــي نواحيهـــا
ألـــوى علـــى الزئبـــق نســـرينها ... والتـــف عافيهـــا بكاســـبيها
واختلجـــت فـــي الـــنفس ألوانهـــا ... كأنّهـــا تـــذكر ماضـــيها
تآلفـــت، فالمـــاء مـــن حولهـــا ... يـــرقص والطيـــر تغنيهـــا
مـــن لقـــن الطيـــر أناشـــيدها؟ ... وعلـــم الزهـــر تآخيهـــا
يـــا هنـــد هـــذي معجـــزات الهـــوى ... وإنّهـــا فينـــا كمـــا فيهـــا
لا يســـتحي الزهـــر بإعلانهـــا ... فمـــا لنـــا نحـــن نواريهـــا؟[3]

ويمضي أبو ماضي في وصف هذه الغابة المفقودة وصفا لا يشك من يقرؤه أنّه إنّما يصف لبنان بشحاريره وجباله وأوديته وفاكهته الشهية، وأضوائه وأكاليل زهوره، وما يزال حتّى يأسى لما أصاب غابته، فقد فصل زمان الهوى، وامتدت يد الإنسان فاستأصلت شجر الغابة، وطردت الطير عن أعشاشها، وأقامت الدور والقصور وهذا كله إنّما رمز المدينة الأمريكية الجديدة يقول أبو ماضي[4]:

---

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص164- 165.

[2] شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص267.

[3] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص 166.

[4] شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ص268.

قـــد بـــدل الإنســـان أطوارهـــا واغتصـــب الطيـــر مآويهـــا
وفـــت بالبـــارود جلمودهـــا واجتـــث بالفـــأس دواليهـــا
وشـــاد مـــن أحجارهـــا قريـــة ســـكانها النّـــاس وأهلوهـــا[1]

ويتحسر أبو ماضي على موطنه الأوّل، وعلى الطبيعة الرائعة التي كانت تزينه، فيقول:

يـــا لهفـــة الـــنفس علـــى غابـــة كنـــت وهنـــد نلتقـــي فيهـــا
جنـــة أحلامـــي وأحلامهـــا ودار حبـــي وتصـــابيها
نبكـــي مـــن اليـــأس علـــى شـــوكها وكـــان يـــدميني ويـــدميها
كانـــت تغطينـــا بأوراقهـــا فصـــارت الـــدور تغطيهـــا![2]

وقد نظم أبو ماضي في شعره قصائد عديدة في الشعر الوطني والقومي، ومن أهمها ما كتبه في فلسطين، واخترت من تلك القصائد قصيدة "**مجاهد**" كمثال على ذلك، فقد تحدث فيها عن فلسطين، ولكن حبه وشوقه المعتاد لوطنه ما يزال يسري في نفسه حتّى أضحى ينصح غيره بحب الوطن والحفاظ عليه، فنجد شاعرنا في هذه القصيدة ينصح كلّ مواطن بحب وطنه والإخلاص له، كما يطلب منه أن لا يرمق بلاده بمقلة تاجر، ويرى بأنّ ذلك عار، ويحذره من المنافقين من أتباع السياسة، فيقول:

وأحبـب بـلادك مثـل "موسـى كـاظم" حبابـــه بـــالإخلاص والإيثـــار
تظفـر لرأسـك مـن أزهارهـا الربـى تاجـا، وتهتـف باسـمك الأغـوار

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص167.

(2) المصدر نفسه، ص168.

إيـــاك ترمقهـــا بمقلـــة تـــاجر إنّ اتجـــارك بـــالمواطن عـــار
ودع المنـــافق لا تثـــق بعهـــوده وطـــن المنـــافق فضـــة ونظـــار
وحـــذار أشـــواك السياســـة إنّهـــا بنـــت أبوهـــا الزئبـــق الأظفـــار[1]

هذا ما اخترته من بعض ما نظمه أبو ماضي من شعر في ديوانه الرابع– الخمائل– عن حبه لوطنه واعتزازه به وشوقه الكبير إليه، فهل سنجد هذا الحنين إلى وطنه "لبنان" في ديوانه الأخير– تبر وتراب– بقدر ما وجد في الديوان السابق؟

هذا ما سأحاول الإجابة عنه بعد التعرض لما جاءت به سليقة شاعرنا أبو ماضي في هذا الديوان.

ثانيا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من ديوان "تبر وتراب":

لطالما تنقل إيليا أبو ماضي في مهجره البعيد بين كلّ ما يمتع العين جمالا، ويقري الأذن بيانا، لكنّه لا يطرب إلا لطيور تلك البقعة من الأرض التي تمثل وطنه في قصيدته "**بلادي**" من هذا الديوان التي عبر فيها عن حبه الكبير لوطنه، فكل شيء في بلاد الغربة بالنسبة إليه لا يضاهي شيئا من بلاده إذ يقول:

إني مررت على الرياض الحالية
وسمعت أنغام الطيور الشادية
فطربت، لكن لم يحب فؤاديه
كطيور أرضي أو زهور بلادي[2]

ويشرب أبو ماضي الأمواء، وعلى عذوبتها لا يستلذ إلا بماء بلاده فيقول:

وشربت ماء النيل شيخ الأنهر
وكأني قد ذقت ماء الكوثر

---

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان الخمائل، ص146– 147.

[2] إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، دار كاتب وكتاب، بيروت، د.ط، 1988، ص95.

نهر تبارك من قديم الأعصر

عذب، ولكن لا كماء بلادي[1]

ويصادف أيضا في غربته من الرجال أصحاب المروءة، ولكن أين هم من أخلاق رجال بلاده، وهذا واضح من خلال قوله:

وقرأت أوصاف المروءة في السير

فظننتها شيئا تلاشى واندثر

أو كأنّها كالغول ليس لها أثر

فإذا المروءة في رجال بلادي[2]

ورأى أبو ماضي الحسن في غير بلاده، لكن لم يسلبه سوى حسن بنات بلاده فيقول:

ورسمت يوما صورة في خاطري

للحسن إنّ الحسن رب الشاعر

وذهبت أنشدها فأعيا خاطري

حتّى نظرت إلى بنات بلادي[3]

وليجعل شاعرنا حنينه إلى وطنه وتعلقه به وتغنيه به بارزا أكثر صور المصغين له في هذه القصيدة يتساءلون عن سبب مدحه لبلاده فقط دون غيرها، وجمال البلدان والأماكن لكثير، وما هذا التصوير إلا ليفصح به عن إعجابه بوطنه فحسب، فلا جمال قد احتل قلبه غير جمالها، إذ يقول:

قالوا: أليس الحسن في كلّ الدنى؟

فعلام لم تمدح سواها موطنا؟

فأجبتهم إني أحب الأحسنا

---

(1) ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص95- 96.

(2) المصدر نفسه، ص96.

(3) المصدر نفسه، ص96.

أبدا، وأحسن ما رأيت بلادي[1]

ويبقى أبو ماضي يعبر عن حبه لبلاده في القصيدة نفسها رغم ما قاله غيره، فقد نعتوها بالعجوز التي ولى جمالها مع الصبا، ونصحوه لأن يتأمل كيف صار حالها اليوم، وما فعله القضاء بها، حتّى أنّهم أوحوا له بموتها، ولكنه لا يأبه لكل ما قيل عنها، ويبقى محبا مخلصا لبلاده حتّى وإن صارت حطاما، وعن ذلك يقول:

قالوا: رأيناها فلم نر طيبا

ولى صباها والجمال مع الصبا

فأجبتهم: لتكن بلادي سبسبا

قفرا، فلست أحب غير بلادي

قالوا: تأمل أي حال حالها

صدع القضاء صروخها فأمالها

ستموت... إنّ الدهر شاء زوالها

أتموت؟ كلا، لن تموت بلادي[2]

وينكر شاعرنا هذه الإيحاءات التي توحي بموت بلاده، ويؤكد لهم ذلك فيشبهها بالغدير في فصل الشتاء، ومتى يعود الربيع يعود جمال بلاده السالب للأنظار، ويشبه بلاده كذلك بالكوكب الوضاح الّذي مهما صار فإنّه يبقى كوكبا، وبالضباب الّذي ليس بسالب لحسن الربى أبدا.

وكذلك يرى أبو ماضي في هذه القصيدة بأن البؤس الّذي يتحدثون عنه أبدا لن يمحو جمال بلاده، فبعده عن وطنه جعله يحبه ويشتاق إليه غير مبالٍ بآراء غيره فيقول:

هي كالغدير إذا أتى فصل الشتا

فقد الخرير وصار يحكي الميتا

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص97.

[2] ينظر، المصدر نفسه، ص97- 98.

أو كالهزاز حبسته... لكن متى

يعد الربيع إلى الإنشاد

الكوكب الوضاح يبقى كوكبا

ولئن تستر بالدجى وتنقبا

ليس الضباب بسالب حسن الربى

والبؤس لا يمحو جمال بلادي[1]

وفي قصيدة ثانية من قصائد ديوان "**تبر وتراب**" يتغنى أبو ماضي بوطنه إذ يعبر فيها هي الأخرى عن حرقته واشتياقه لوطنه العزيز، فنجده في هذه القصيدة– قصيدة "**وطن النجوم**"– يصور لنا كيف أنّه حين يمر أمام عينيه شريط الذكريات يتذكر ذلك الفتى الأرعن الجذلان الّذي يتسلق الأشجار، ويبري الأغصان تارة سيوفا، وأخرى رماحا، ويقوم بحركاته الشيطانية فيقول مذكرا وطنه به:

وطن النجوم...أنا هنا ... حدق...أتذكر من أنا؟

ألمحت في الماضي البعيد ... فتى غريرا أرعنا؟

جذلان يمرح في حقولك ... كالنسيم مدندنا

المقتنى المملوك ملعبه ... وغير المقتنى!

يتسلق الأشجار لا ضجرا ... يحس ولا ونى

ويعود بالأغصان يبريها ... سيوفا أو قنا

ويخوض في وحل الشتا ... متهللا متيمنا

لا يتقي شر العيون ... ولا يخاف الألسنا

ولكم تشيطن كي يقول ... النّاس عنه "تشيطنا"[2]

ويعرف بعد ذلك بنفسه فيقول لوطنه الّذي يخاطبه في هذه القصيدة:

---

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص98– 99.

[2] ينظر، المصدر نفسه، ص7– 8.

أنـــــا ذاك الولـــــد الّـــــذي دنيـــــاه كانـــــت ههنـــــا! [1]

وينصهر الشاعر مع الطبيعة اللبنانية ويذوب فيها، فإذا به يصير قطرة من قطرات مياهه الندية، وذرة من ترابه الذهبي، وبلبلا مغردا من بلابله الكثيرة التي حملت الفرح والبشاشة من لبنان وسافرت بها إلى العوالم الأخرى: [2]

أنـــا مـــن مياهـــك قطـــرة فاضـــت جـــداول مـــن ســـنا
أنـــا مـــن ترابـــك ذرة ماجـــت كواكـــب مـــن منـــى
أنـــا مـــن طيـــورك بلبـــل غنـــى بمجـــدك فـــاغتنى
حمـــل الطلاقـــة والبشاشـــة مـــن ربوعـــك للـــدنى [3]

وتهيج به الذكرى بعد هذا الاتحاد، ويزيد في نفسه حنينه إلى لبنان الّذي تركه منذ أكثر من خمسين عاما، فيناجيه من قلب يتحرق شوقا ويذوب حنينا[4] قائلا:

كـــم عانقـــت روحـــي بـــاك وصـــفقت فـــي المنحـــى؟
لـــلأرز يهـــز أبـــا الريـــاح وبالـــدهور وبالفنـــا
للبحـــر ينشـــره بنـــوك حضـــارة وتمـــدنا
لليـــل فيـــك مصـــليا للصـــبح فيـــك مؤذنـــا

للشـــمس تبطـــئ فـــي وداع ذراك كـــيلا تحزنـــا
للبحـــر فـــي نســـيان يكحـــل بالضـــياء والأعينـــا
فيـــذوب فـــي حـــدق المهـــى ســـحرا لطيفـــا لينـــا

للحقـــل يرتجـــل الروائـــع زئبقـــا أو سوســـنا
للعشـــب أثقلـــه النـــدى للغصـــن أثقلـــه الجنـــى [1]

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب ، ص8.

[2] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص72.

[3] إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص8.

[4] خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص71.

ويرى الشاعر أن الجمال طاف الدنيا وهو يبحث عن مكان يستقر به، ويتوطن في أرجائه، وعندما انكشف له لبنان وجد أنه هو المكان الأفضل ليجعله موطنه ومقر سكناه[2] فيقول:

عـــاش الجمـــال مشـــردا فـــي الأرض ينشـــد مســـكنا
حتّـــى انكشـــفت لـــه فـــألقى رحلـــــه وتوطنـــــا
واســـتعرض الفـــن الجبـــال فكنـــت أنـــت الحســـنا[3]

ويرى أن في لبنان سرا خفيا لم ينكشف بعد، ولربما وضع الله جماله في هذا الوطن ليدل على إعجاز خلقه وعظيم قدرته، فكسا الأرز بالجلال والجمال الخارق حتّى تؤمن به القلوب فيقول:[4]

لله ســـــر فيـــــك يـــــا لبنـــــان، لـــــم يعلـــــن لنـــــا
خلـــــق النجـــــوم وخـــــاف أن تغـــــوي العقـــــول وتفتنـــــا
فأعـــــــار أرزك مجـــــــده وجلالـــــه كـــــي نؤمنـــــا [5]

وبعد كلّ ما قاله أبو ماضي عن بلاده من إطراء وفخر به في هذه القصيدة الجميلة، هل من الممكن أن يسلو بلده!؟ فيجيب قائلا:

زعمـــــوا ســـــلوتك...ليتهم نســـــبوا إلـــــي الممكنـــــا
فـــالمرء قـــد ينســـى المســـيء المفتـــــــري، والمحســـــــنا
والخمـــر، والحســـناء، والـــوتر المـــــــــرنح، والغنـــــــا

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص8-9.

(2) خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص73.

(3) إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص9.

(4) خليل برهومي، إيليا أبو ماضي شاعر السؤال والجمال، ص73.

(5) إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص9.

ومـــــرارة الفقـــــر المـــــذل بلـــــى، ولـــــذات الغنـــــا
لكنّـــــه مهمـــــا ســـــلا هيهـــــات يســـــلو الوطنـــــا[1]

ويا لها من إجابة تقرع القلوب، فتحن وتعطف، وتقرع العقول فتعترف بحبه لوطنه وتقنع.

وما زال أبو ماضي يعبر في قصائد أخرى عن حبه لوطنه وشوقه إليه، وها هو ذا شغفه لوطنه يجعله يحس بالجوع والخبز وفير، ويجعل روحه في ضباب والنور يغمر المكان من حوله، ويجعل منه شخصا يعاني الظمأ والماء من حوله عذب سائغ، كلها أوهام تعذب نفسه الموجوعة بسبب غربته عن وطنه وبعده عنه، فيحكيها في قصيدته "**يا رفاقي**" إذ يقول:

جعـت والخبـز وفيـر فـي وطـابي والســنا حــولي وروحــي فــي ضــباب
وشــربت المــاء عــذبا صــائغا وكــأني لــم أذق غيــر ســراب
حيــرة لــيس لهــا مثــل ســوى حيــرة الــزورق فــي طــاغي العبــاب
لــيس بــي داء ولكنــي امــرؤ لســت فــي أرضــي ولا بــين صــحابي
مــرت الأعــوام تتلــو بعضــها للــورى ضــحكي، ولــي وحــدي اكتئــابي[2]

ويمد الشاعر لنفسه أمل اللقاء بذاك الوطن البعيد، ولكن دنياه تمنعه من ذلك كرها، فهو يود العودة إلى وطنه مهما كان الثمن، إلا أن تلك الدنيا وأشغالها تقف ضد تحقيق رغبته، وتفلت منه حلاوة الرؤى والأحلام فيقول:

كلّمــا اســتولدت لنفســي أمــلا مــدت لــه الــدنيا كــف اغتصــاب
أفلتــت منــي حــلاوات الــرؤى عنــدما أفلــت مــن كفــي شــبابي[3]

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب ، ص10.

(2) ينظر، المصدر نفسه، ص77- 78.

(3) المصدر نفسه، ص78.

ثمّ يجيب أبو ماضي كلّ سائل عنه "من هو" مشبها نفسه بالشمس التي تشرق دوما من الشرق فهو مثلها "من الشرق انتسابه" كما أنّه يعتز بهكذا انتساب أيما اعتزاز فيقول بكل وضوح:

أيّهـا السـائل عنـي مـن أنـا أنا كالشمس إلى الشرق انتسابي[1]

ثمّ يقول مضخما غربته عن غربة غيره التي تنحصر عنده في غربة الأجسام فحسب، بينما غربته هو فتزيد على غربة الجسد بغربة الروح التي تزيد النفس تألما:

لغـة الفـولاذ هاضـت لغتـي لا يعيش الشدو فـي دنيـا اصـطخاب

لست أشكو إن شكا غيري النوى غربـة الأجسـام ليسـت بـاغتراب[2]

وشبه أبو ماضي نفسه بالسوسن وبالكرمة التي يرى أنّه لو لم تغترب لما حواها النّاس في الأقداح، جاعلا ذلك كمبرر لسبب غربته عن وطنه، عسى ذلك يخفف من أوجاعه وآلامه[3]:

أنـا كالكرمـة لـو لـم تغتـرب مـا حواهـا النّـاس فـي الخـوابي

أنـا كالسوسـن لـو لـم ينتقـل لـم يتـوهج زهـره رأس عكـاب

وقد استلهم الشاعر روح الشرق في هذه القصيدة استلهاما عجيبا،[4] إنّه يعبر عن نفسه وكأنه مجرد جسد متواجد في "نويورك"، بينما روحه فقد أرسلها إلى الشرق حيث موطنه الّذي يحن إليه، ويدعو ربه بأن يلبي له رغبته في العودة إلى وطنه الحبيب، الّذي أُحرق قلبه لوعة على لقياه فيقول:

أنـا فـي نيويـورك بالجسـم وبـالروح فـي الشـرق علـى تلـك الهضـاب

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص78.

(2) المصدر نفسه، ص79.

(3) المصدر نفسه، ص79.

(4) محمد عبد المنعم خفاجي، مدارس الشعر الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2004، ص79.

أنا في انتسام الفجر، في صمت الدجى ... فـي أسـى تشـرين، فـي لوعـة آب
أنـا فـي الغوطـة زهـر ونـدى ... أنـا فـي "لبنـان" نجـوى وتصـابي
ربّ هبنـي لـبلادي عـودة ... ولـيكن للغيـر فـي الأخـرى ثـوابي[1]

فحب أبو ماضي لوطنه لطالما كان راسخا في قلبه وذاته، يملء كيانه، فرغم قلة عدد السنين التي عاشها فيه إلا أنّها كانت كفيلة لأن تجعل منه شاعرا صبا ومتيما به، يشتاق إلى كلّ ما يتذكره عنه في طفولته، فنجده في كلّ مرة يتغنى بطبيعة موطنه الخلابة، ويتغنى بطيورها وأزهارها، ويشتاق إلى منازل وطنه والمقيمين بتلك المنازل فيعبر عن كلّ ذلك في قصيدة له بعنوان "**تلك المنازل**" فيقول:

تلـك المنـازل..كيف حـال مقيميهـا ... إنـا قنعنـا بعـدها برسـومها
تمشـي علـى صـور الطيـور لحاظنـا ... نشـوي، كمـن يصـغي إلـى ترنيمهـا
ونكـاد نعشـق فـي الأزاهيـر الـدمى ... أزهارهـا، ونحـس نفـخ شـميمها
نشـتاقها فـي بؤسـها ونعيمهـا ... ونحبهـا فـي بؤسـها ونعيمهـا
لـولا الخيـال عـين أنفسـنا لمـا ... سـكنت، ولـم يهـدأ أصـراخ كلومهـا[2]

ثمّ يقول في نفس القصيدة عن طبيعة بلاده الآسرة هذه الأبيات:

يـا حـاملا فـي نفسـه وحديثـه ... أحـلام أرزتهـا ولطـف نسـيمها
حـدث بنيهـا شـيخهم وفتـاهمو ... عـن ليـث غابتهـا وظبـي حريمهـا
خبـرهم عـن الكواكـب لـم تـزل ... تحنـو علـى العشـاق بـين كرومهـا
مـازال بلبهـا يغنـي للربـى ... والسـحر تنفثـه لـواحظ ريمهـا

---

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص79- 80.

[2] ينظر، المصدر نفسه، ص167- 168.

والـــريح تلـــتقط الشـــذى وتذيـــه مـــن ســـيحها طـــورا ومـــن قيصـــومها
وهضـــابها يلبســـن عســـجد شمســـها حينـــا وأحيانـــا لجـــين نجومهـــا[1]

ويتباهى الشاعر بليل وطنه وشطآنه وروابيه، وكذلك بالسحب والغيوم التي تزين سماءه الموسومة في ذاكرته منذ صغره، فيقول:

حـــد ثـــمّ عـــن ليلهـــا ونجومهـــا وعـــن الهـــوى فـــي ليلهـــا ونجومهـــا
وعـــن الشـــطوط الحالمـــات بعـــودة للغـــائبين، ورجعـــة لنعيمهـــا
وعـن الروابـي الشاخصـات إلـى السـما العالقـــات رؤوســـها بغيومهـــا
فكأنهـــا ســـحب هـــوت مـــن حـــالق ورســـت علـــى وجـــه الثـــرى بهمومهـــا
وعـــن الحيـــاة جميلهـــا وقبيحهـــا وعـــن النفـــوس صـــحيحها وســـقيمها[2]

ومثلما تباهى أبو ماضي بوطنه الأوّل ومسقط رأسه، فقد اعتبر قرية "ملفرد" المتواجدة في القارة الأمريكية مثل وطنه، ذلك كونها شبيه بقريته التي ترعرع فيها فراح يحن ويشتاق إلى طبيعة تلك القرية الخلابة، وما شوقه إلى تلك القرية إلا لاحتوائها نفس الميزات التي حملتها بلاده من صور للطبيعة الساحرة في أرضها وسمائها، في طيورها ورباها، في ضحاها ومساها، فيقول في قصيدته "**أم القرى**":

هـــذه "ملفـــرد" قـــد لاحـــت رباهـــا فـــأنس يـــا قلـــب الليـــالي وأذاهـــا

واشـــــهد الفـــــن ســـــفوحا وذرى والهـــوى الصـــافي أريجـــا ومباهـــا
ههنـــا أودعـــت أحـــلام الصـــبا أفمـــا تلمـــح نـــورا فـــي ثراهـــا؟
ههنـــا بـــالأمس فـــي دارتهـــا كنـــت مثـــل النســـر حـــرا فـــي ذراهـــا
أتلقـــى الـــوحي عـــن بلبلهـــا وهـــو ولهـــان يتغنـــى لرباهـــا
وتحـــس الـــوحي وحيـــا هابطـــا مـــن ســـماها فـــي ضـــحاها ومســـاها
ذهبـــت عشـــرون فـــي فرقتهـــا ليتهـــا فيهـــا انقضـــت لا فـــي ســـواها[3]

---

(1) ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص167- 168.

(2) ينظر، المصدر نفسه، ص168- 169.

(3) ينظر، المصدر نفسه، ص58- 59.

ويلقي أبو ماضي الملامة على "نيويورك" في سرقتها له رؤياه لهذه القرية الساحرة التي تسعد قلبه، ويرى أنّه أصبح مجرد طيف شارد حائر لا يدري أين يسري ولا حتّى ماذا يفعل فينشد قائلا:

صرت في نيويورك طيفا شاردا ... مع طيوف حائرات في سرابها سراها

طرحت عنها رؤاها ومضت ... تنشد المجد الّذي فيه شقاها

كنعاج عميت أبصارها ... ووهت في طلب العشب قواها

كلّما جدت لكي تدركه ... وجدته صار في الأرض وراها!

أين في نفسي رؤى تسعدها؟ ... سرقت نيويورك في نفسي رؤاها[1]

ويختم الشاعر قصيدته معرفا كلّ قارئ بهذه القرية، فيسميها بـ"أم القرى" طالبا من كلّ زائر لها أن يقف في حماها حتّى يرتاح باله ويهنأ عيشه فيقول:

هذه "أم القرى" قف في حماها ... تسترح نفسي في بعض حماها[2]

وينبعث صوت رخيم من البلاد العربية فيوظ لواعج الشوق في كيان أبو ماضي، ويبعث التفاؤل في صدره- تماما مثلما كانت تفعل قرية ملفرد في نفسه بجمالها- إنّه صوت "سورية"، ذاك الصوت الّذي نقله عبر أجواء سحرية من مهجره إلى دياره الحبيبة، فيقول في قصيدته "**صوت من سورية**":

صوت سورية الجميلة ... صوتك العذب الرخيم

ضاحك مثل الخميلة ... لاعب مثل النسيم

يا أخا الورقاء غن ... فالغنا شعر المساء

فهو في الغصن تثن ... وهو في النجم بهاء

صوت سورية الجميلة

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب ، ص60.

(2) المصدر نفسه، ص60.

صوتك العذب الرخيم

ضاحك مثل الخميلة

لاعب مثل النسيم

غنـــــا حتّـــــى نمـــــيلا مثـــــل أغصـــــان الأراك

كـــم بنـــا صـــبا علـــيلا لا يداويـــــه ســـــواك؟

صوت سورية الجميلة

صوتك العذب الرخيم

ضاحك مثل الخميلة

لاعب مثل النسيم

أيهـــا المحـــزون هيـــا واســـمع اليـــوم الكنـــار

ســـاجعا ســـجعا شـــجيا ذاكـــرا تلـــك الـــديار

صوت سورية الجميلة

صوتك العذب الرخيم

ضاحك مثل الخميلة

لاعب مثل النسيم[1]

ويتمنى أبو ماضي بعد كلّ هذا الثناء لو أنّه كان طيرا من الطيور في هذه البلاد ليحوم على ضفاف الوديان، ويرشف ماء بلاده، ويتغنى كذلك بحبه لموطنه- بسهولة ورباه- ويرى فيه دواء يشفي كلّ عليل:

ليتنـــا كنـــا طيـــورا حـــول عـــين أو غـــدير

نرشـــف المـــاء نميـــرا نلقـــط الحـــب النثيـــر

* * * * *

[1] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص124- 125-126.

مـــوطن نهـــوى ســـهوله مثلمـــا نهـــوى ربـــاه

الصـــبا فيـــه عليلـــه تتـــــداوى بنـــــداه

صوت سوريا الجميلة

صوتك العذب الرخيم

ضاحك مثل الخميلة

لاعب مثل النسيم[1]

أما فيما يخص باقي الدواوين كديوان "**تذكار الماضي**"، و"**ديوان أبو ماضي (الجزء الثاني)**"، وكذا "**ديوان الجداول**"، فقد تغنى أبو ماضي فيها أيضا بحنينه لوطنه إلا أنّه لم يكن بنفس المقدار الّذي تغنى به في هذين الديوانين– "**الخمائل**"، و"**تبر وتراب**"– وارتأيت أن أورد نماذج موجزة من بين ما تبقى من قصائده، التي عبر فيها عن حنينه لوطنه والتي لم ترد في البحث.

ثالثا: الحنين إلى الأوطان في نماذج من باقي شعره

نظم إيليا أبو ماضي قصائد أخرى عن حنينه لوطنه في غير هذين الديوانين، ديوان "الخمائل" وديوان "تبر وتراب"، وفيها من القصائد لم يلفت الأنظار ويطرب المسامع، لذلك ارتأيت أن أورد بعضا منها فيما يلي:

في قصيدة له بعنوان "**بلادي**" نجد الشاعر– أبو ماضي– يعبر عن حنينه لوطنه الّذي اعتبره حبا أزليا يراه لا ينتهي مع الموت، ولا يضمحل أو يتلاشى، فهو مواطن قبل أن يكون شاعرا صبا متيما ببلاده، يزف عبر أبيات هذه القصيدة أحلى التحايا، فيقول:

مثلما يكمن اللظى في الرماد هكذا الحب كامن في فؤادي

لست مغرى بشادن أو شاد أناصب متيم ببلادي

يا بلادي عليك ألف تحية

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص126.

فهـو حـب لا ينتهـي والمنيـة لا، ولا يضـمحل والأمنيـة

كـان قلبـى وقبـل نفسـى الشـجية كـان مـن قبـل فـى الحشـا الأزليـة

وسيبقى ما دامت الأبدية![1]

ثمّ يعود الشاعر ليؤكد أن حبه هذا لبلده فحسب، وليس للنساء الحسناوات، وأن عشقه لوطنه أغشى على عينيه ضبابة، فأضحت كلّ جميلة ليست بالجميلة- بالنسبة إليه- فهذا ما يفعل الحب بصاحبه.

كذلك يبرز أبو ماضي في قصيدته بأنّه لا يستحي بحبه، فالحياء عنده يقف، وقد ينعدم أمام الحب والوطنية، كما يضيف بأن كلّ شيء فانٍ ما عدى شوقه لبلده لبنان،وللبلاد العربية كسوريا ومصر- على سبيل المثال- فهو يتنفس هذا الوطن، كما أنّه مستعد لأن يحمل هذا الحب في كلّ ذرة من ذرات رفاته إذ يقول:

خليـاني مـن ذكـر ليلـى وهنـد واصـرفاني عـن كـلّ قـد وفـد

كـلّ حسـناء غيـر حسـناء عنـدي أو أرى وجـدها بقـومي كوجـدي

لا حياء في الحب والوطنية

كـلّ شـيء فـي هـذه الكائنـات مـن جمـاد وعـالم ونبـات

وقـديم وحاضـر أو آت صـائر للـزوال أو للممـات

غير شوقي إليك يا سورية

أنـت مـا دمـت فـي الحيـاة حيـاتي فـإذا مـا رجعـت للظلمـات

واسـتحالت جـوارحى فـى ذرات فلتقـل كـلّ ذرة مـن رفـاتى

عاش لبنان ولتعش سورية[2]

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص145.

[2] المصدر نفسه، ص146.

زشدة ولع الشاعر بوطنه وهيامه به جعلته يطلب من النبات والدموع والبخار وحتّى من الشعراء بعده بالهتاف من أجل أن تحيا لبنان وسورية فيقول:

ولتقـــل كـــلّ نفحـــة مـــن نـــد ولتقـــل كـــلّ دمعـــة مـــن خـــد
وتقـــل كـــلّ غرســـة فـــوق لحـــدي وليقـــل كـــلّ شـــاعر مـــن بعـــدي
عاش لبنان ولتعش سورية[1]

وراح أبو ماضي يشكو بين هذه الأبيات أوجاعه ومعاناته في بلاد الغربة بعيدا عن وطنه، يشكو كيف سهر الليالي حائرا بين الأشباح، واصفا وحدته بدقة لا متناهية، متمنيا لو أنّه لم يكن إنسانا فيسلبه النوى الفرحة والهناء في بلاده، ويتمنى لو أنّه كان نسمة شرقية، إذ يقول:

رُبَّ ليـــــل ســـــهرته للصـــــباح حـــــائرا بـــــين عســـــكر الأشـــــباح
لـــيس لـــي مـــؤنس ســـوى مصـــباحي ونـــــداء المـــــلاح للمـــــلاح
وصراخ الزوارق الليلية

تتهـــادى فـــي الســـير كالكائنـــات أو كســـرب النعـــام فـــي الفلـــوات
مقـــبلات فـــي النهـــر أو رائحـــات تحت ضـوء الكواكـب الزاهـرات الزاهـرات
فوق ماء كالبردة اليمنية

تتمشـــى فـــي صـــفحتيه النســـائم فتـــرى المـــوج فيـــه مثـــل الأراقـــم
يتلـــــوى وتـــــارة كالمعاصـــــم كلـــــف المـــــاء بالنســـــيم الهـــــائم
ليتني كنت نسمة شرقية[2]

ويصف أبو ماضي ليله النيويوركي الّذي يخافه عندما كان يسدل خيوطه، ويصف أحوال جفونه التي كانت يغمضها مستهينة، والتي ترى دوما طيف سورية الحزينة بسبب الحرب، ولطالما حلم هذا الشاعر في لياليه الغربية بالعودة إلى وطنه، ولطالما كان يرسم

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص146.

(2) المصدر نفسه، ص146.

لوطنه في مخيلته أجمل الصور ويلونها بأبهى المناظر محاولا أن يتخيله كيف أصبح ذاك الوطن الّذي طال غيابه عنه فيقول:

هجـــع النّـــاس كلهـــم فـــي المدينـــة وتولـــت علـــى "نيويورك"الســـكينة

وجفـــوني، بغمضـــها مســـتهينة لا تـــرى غيـــر طيـــف تلـــك الحزينـــة

لست أعني سوى سورية

نلـــك ليـــل قطعتـــه أتأمـــل رســمها الصــامت الّــذي لــيس يغفــل

وبنـــاني مـــع خـــاطري تتنقـــل بـــين هـــذا الحمـــى وذاك المنـــزل

والربى والخمائل السندسية

ههنـــا رســـم منـــزل أشـــتهيه ههنـــا مربـــع أحـــب نويـــه

ههنـــا رســـم معهـــد كنـــت فيـــه مـــع رفـــاقي أجـــر نيـــل التيـــه

في الضحى، في الأصيل، بعد العشية[1]

وتطول بالشاعر أيام الغربة، ويزداد شوقه إلى موطنه، وتكثر الصور التذكارية متزاحمة في مخيلته، صور تندثر وصور تظهر، وبتلك الذكريات والتخيلات كان يشعر بلذة تواسه في غربته، إلا أن تلك اللذة الوهمية سرعان ما تتحول إلى هم يزيد من عذابه فيتحرق قلبه شوقا إلى ماضيه، فيروح يلوم رسومه الوهمية عن ذلك، ويسأل عن أيام صباه، وعن رفاقه فينشد أبو ماضي وكله ألم وشوق إلى ماضيه قائلا:

كـــم تطلعـــت فـــي الخطـــوط الدقيقـــة ولثمـــــت الطرائـــــق المنســـــوقة

قنعـــت بالخيـــال نفســـى المشـــوقة ليـــت هـــذا الخيـــال كـــان حقيقـــة

فعذابي في لذتي الوهمية

يـــا رســـوما قـــد هيجـــت أشـــواقي طـــال، لـــو تعلمـــين عهـــد الفـــراق

أيـــن تلـــك الكـــؤوس، أيـــن الســـواقي أيـــن تلـــك الأيـــام، أيـــن رفـــاقي

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص147.

أين أحلامي الحسان البهية؟[1]

وما تزال القصيدة متواصلة، وكلها عبارات ملؤها الشوق والحنين إلى ربوع وطنه الحبيب.

ولم يبك أبو ماضي لبعده عن وطنه، وشوقه إليه فحسب، بل أبكاه كذلك حال ذاك الوطن الّذي ظلمته الأيام واستبد به البطش والعدوان، وأبكاه ما فعلت الحرب به، فقد بدى حزنه هذا على بلده جليا في قصيدته "**يا جارتي**" حيث سرد فيها كيف تنبه كلّ جار من جيرانه لحزنه، واحتار لأمره كلّ راء، فبدت الحيرة على وجوههم، وكثرت التساؤلات عن سبب حزن هذا الشاعر، وهو الّذي كانت البسمة لا تفارق وجهه، وعن سبب صمته الدائم وهو من كان ملسانا، فيصور أبو ماضي كلّ هذا في حواره مع جارته فيفتح مطلع قصيدته بتساؤل الجارة عما أصابه:

قالت لجارتها يوما تسائلها ... عني وفي طرفها الوسنان أجشان

ما بال هذا الفتى في الدار معتزلا ... كما توحد نساك ورهبان

يأتي المساء عليه وهو مكتئب ... ويرجع الليل عنه وهو حيران

يمر بالقرب منا لا يكلمنا ... وللحديث مجال، وهو ملسان

وإن نكلمه لا يفقه مقالتنا ... إلا كما يفقه التسبيح سكران

إذا تبسم، لا تبدو نواجده ... وإن بكى فله نزع وإرنان

كما نيطت الدنيا بعاتقه ... كأنّما كلّ عضو فيه بركان

فلا ابتسام نوات الغنج يطربه ... ولا ابنة الحان تصييه ولا ألحان

أما له جيرة في الأرض يألفهم[2]

---

(1) إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص147.

(2) ينظر، المصدر نفسه، ص484- 485.

فيقاطعها الشاعر ليجيب على كلّ تساؤلاتها، مما كان في سبب حزنه إلا حسرة على ما فعلته الحرب وويلاتها بموطنه وبأهله وخلانه الّذين يحرقه شوق لقياهم، وصار يحدث جارته ويشكو لها عن ألمه وبؤسه، وعن الأمل الّذي كان يغمر قلبه بأن له موطن وأحباب قبل أن تفعل الحرب ما فعلته بهم، فجعلت منه وهو بعيد عن وطنه شاعرا بائسا يغمره اليأس، لا يلتذ بشيء ولا يشتهي شيئا، فيقول:

يـا جـارتي كـان لـي أهـل وجيـران

فبتّـت الحـرب مـا بينـي وبيـنهم كمـا تُقَـطَّعُ أمـراس وخيطـان

فـاليوم كـلّ الّـذي فـي مهجتـي ألـم وكـل مـا حـولهم بـؤس وأحـزان

وكـان لـي أمـل إذ كـان لـي وطـن فيـه لنفسـي لبانـات وخـلان

فجربتـه الليـالي مـن محاسـنه كمـا يعـرى مـن الأشـجار بسـتان

فـلا المغـاني التـي أشـتاق رؤيتهـا تلـك المغـاني، ولا السـكان سـكان

لـو المـروءة تـدري أي فاجعـة بالشـام، نـاح عليهـا الإنـس والجـان

ولـو يبـث بنـو لبنـان لـوعتهم لاهتـزت الأرض لمـا اهتـز لبنـان[1]

والقصائد التي نظمها أبو ماضي في هذا المجال ما تزال كثيرة ومتعددة، فحنينه إلى الوطن هذا لم يكن حنينا إلى لبنان حسب، بل نجده في بعض القصائد يشتاق إلى البلاد العربية بصفة عامة، فلطالما تغنى بمصر واعتبرها كوطنه الّذي ضمه ورعاه بعد وطنه الأم، فقد كتب العديد من القصائد التي يذكر فيها حبه إلى مصر واشتياقه لها، فها هو في إحدى قصائده "**عيد النهى**" يساوي بينها وبين بلده الأم "لبنان" فيقول"

وطنـان أشـوق مـا أكـون إليهمـا مصـر التـي أحببتهـا وبـلادي

ومـواطن الأرواح يعظـم شـأنها فـي الـنفس فـوق مـواطن الأجسـاد

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص485.

حرصي على حب "الكنانة" دونه ... حرص السجين على بقايا الزاد[1]

وفي قصيدة "**لقاء وفراق**" يصف مصر وجمالها بأبيات رائعة فيقول:

أصبو إليها وأصبو كلّما نكرت ... عندي اشتياقا إلى مصر وأهليها

أرض سماء سواها دونها شرف ... فلا سماء ولا أرض تحاكيها[2]

وفي قصيدة "**قف يا قطار**" يقول أبو ماضي عن لبنان وسورية:

قف يا قطار، على ربوعهم ... إنّ الأحبة، يا قطار...هنا

هذه منازلهم تهش لنا ... أخطأت، ... بل هذي منازلنا

ما حل منهم موضعا أحد ... إلا وصار لكلنا وطنا

سورية في "كانتن" نغم ... عذب، و"لبنان" شذى وسنا[3]

والقصائد ما تزال متواصلة في حنين أبو ماضي إلى وطنه وإلى البلاد العربية بصفة عامة، خاصة مصر وسورية، وأكتفي بعد كلّ ما ورد في هذا البحث من قصائد سابقة بذكر عناوين هذه القصائد فحسب حتّى لا يأخذ البحث طريقا لا رجعة فيه، ومن بين هذه القصائد نذكر:

"**أنت**"،[4] "**أمة تفنى وأنتم تلعبون**"[5]، "**وداع وشكوى**"[6]، "**متى يذكر الوطن النوم**"[7]، "**بلادي**"[8]، "**روعة العيد**"[9]، **الماهدون في المهجر**. [10]

---

[1] إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، ص127.

[2] إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص587.

[3] إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص203.

[4] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص18.

[5] ينظر، المصدر نفسه، ص473.

[6] ينظر، المصدر نفسه، ص337.

[7] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان الجداول، ص189.

[8] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان إيليا أبو ماضي، (أعماله الكاملة)، ص462.

[9] ينظر، إيليا أبو ماضي، ديوان تبر وتراب، ص101.

[10] ينظر، المصدر نفسه، ص213.

وخلاصة ما يمكن قوله في هذا الفصل هو أن شاعرنا- أبو ماضي- كان شاعرا وطنيا من الدرجة الأولى، دافع بشعره عن وطنه وعن البلاد العربية بصفة عامة، حيث نظم الشعر في مناسبات عدة معبرا عن حنينه وشوقه إلى وطنه الحبيب، معبرا عن موقفه من الأحوال السياسية في البلاد العربية، فقد كتب عن سورية، وعن بيروت ومصر، وكذا عن فلسطين وما فعلته الحروب بهذه البلدان.

كذلك تبين لي أن لبنان- على وجه الخصوص- لطالما كان في ضمير الشاعر إيليا أبو ماضي قلادة ثمينة في جيد الدهر، وخريدة نفيسة في عنق الزمان، غناه بجواره، ووهبه كلّ ما يضمنه صدره من حب وهيام، ويضطرم في فؤاده من مشاعر وأحاسيس

هذا هو الشاعر اللبناني أبو ماضي، وهذا هو حنينه إلى وطنه.